رواية

شخص مضى قدمًا

فصول في السعي الروحي

حسين إسماعيل

شخص مضى قدمًا

”أنا حور بن أوناس سوكر.. الشاعر والبحار، أنا الذي اضطرب قلبي نفورًا من انهيار الحضارة في إمبراطورية كيميت، وانهيار أخلاق شعبي، فربة الحق والصدق والعدالة ماعت لم تعد موجودة إلا نقوشًا، ولم يعد أحد يحترمها أو يقدرها، فانكسر قلبي إلى ألف شلو عندما انكسرت القيم النبيلة التي تغنى بها الحكيم الشاعر أمنموبي.“

حسن إسماعيل:

كاتب مصري كان يعمل وكيلا بوزارة التربية والتعليم وله ستة نصوص مقررة في منهج الصف الثالث الابتدائي

صدر له العديد من الكتب الفكرية والإبداعية

كما فاز بمسابقة الهيئة العامة لقصور الثقافة عن شعر الأطفال

غلاف : أمير مصطفى

9 789776 739215

حبيبة للنشر

إضافة
www.idafabooks.com

شخص مضى قدماً

شخص مضى قدماً

رواية
حسن أحمد إسماعيل
الطبعة الأولى : ٢٠١٩
رقم الإيداع : ٢٧٥١٧ / ٢٠١٩
ISBN 978-977-6739-26-0
١٥٠ ص ٢٠ سم
الناشر: الحسناء للنشر والتوزيع
{جميع الحقوق محفوظة ©}
التوزيع لجميع أنحاء العالم
الإسكندرية
ج ٠ م ٠ ع

المراجعة اللغوية: عادل أبو الأنوار
غلاف وإخراج فني: أمير مصطفى

إضافة للنشر والتوزيع
www.idafabooks.com

شخص مضى قدماً

فصول في السعي الروحي

رواية

حسين أحمد إسماعيل

إهداء

إلى كل شخص مضى قُدُماً

قصة الكنز

جرة خزفية كانت تحتوي الكنز.. انبهر الجميع، ولمعت العيون واشتعل التوقع، ولم يتمالك أحدنا نفسه، وقفزنا إلى الحفرة، وشفافية المساء تسلم نفسها إلى عكارة الظلام.

حتى الفجر ونحن نختبر الأرض، ونحفر كالمجانين، بقوة خارقة بحثا عن الكنز، وفرّط خالي يوسف –مع بخله– في ثمن خمس سجائر حشيش تشجيعا لنا؛ لأنه صاحب البيت الذي انتهى الحفار من حفر أساسه أمس، وعندما كان خالي يوسف يسوي الأرض اصطدمت فأسه بحجر في زاوية الحفر، وبدأت تظهر بعض الأحجار البيضاء المنقوشة، وحفرنا حتى وجدنا حجرة صغيرة مثل التابوت، فحطمنا سقفها الحجري، فوجدنا الجرة الخزفية التي سحرتنا، فللجرار تاريخ من الخرافات في أتربب.. وكانت حلم الجميع، فكثير من الأسر اغتنت من جرار الذهب الفرعوني.

عندما فتحنا الجرة لم نجد ذهبًا، بل لفافات من البردي، فأصابت الجميع خيبة أمل، ولم يسفر الحفر عن شيء إلا الجرة، وبعض الأحجار المنقوشة بطول متر تقريبًا.

عندما بزغ الفجر كان لا بد أن نسوي الأرض كما كانت، وتخلص أولاد خالي من الأحجار، ولم تنفع محاولاتي للاحتفاظ بها، فأسرعت إلى البيت، وحملت الكاميرًا الزينت الروسية، وصورت الأحجار صورًا دقيقة؛ لأقرأها فيما بعد بلغتي الهيروغليفية المتواضعة.

قال لي أمين أكبر أبناء خالي: إنت بتحب القراية والرسم.. خد الورق ده.. وذلك عندما وقفت وهددتهم بإبلاغ الآثار والشرطة، حين حاولوا إحراق البرديات.. وقال: خدها مع الزلعة ومتقولش لحد.. إنت عارف مشاكل الآثار، فقلت له: متخافشي.

أما الأحجار فقد صنعوا منها حوضًا بالأسمنت، لتصب فيه ماكينة الري مياه الترعة إلى الحقل.. تألمت، ولكني فزت بكنز لم أحلم به، والحقيقة التي لا مهرب منها أن الناس مضطرون للتعامل مع الآثار بهذه الطريقة، بسبب مضايقات هيئة الآثار، فلو علمت بما وجدنا، لأوقفت بناء البيت سنوات حتى تقوم بحفر المنطقة، ويمكن مصادرة الأرض، سيفسد الحديد والأسمنت.. يعني وقف حال، وخراب بيوت لا يحتمله أحد.. والحمد لله أن الأمر انتهى هكذا، ولكن خالي يوسف تألم سنوات بسبب ثمن السجائر، وظل الأمر طُرفة لوقت طويل.

* * *

لأتريب المعاصرة حضارة قديمة في التاريخ، فقد كانت المقاطعة العاشرة من عشرين مقاطعة في شمال مصر، لذلك سميت قصر الأقليم الأوسط: حت – إري – إيب، وكانت تعبد الإله حور بن إيزيس وأوزير، وهذا هو الثالوث الإلهي لأتريب، وللإله حور معبد كبير أقامه أمنحتب بن حابو المهندس العظيم ابن أتريب.

ويمتد تاريخ المدينة إلى عهد الملك زوسر باني أول بناء حجري في العالم في سقارة.. ولم يبق من أتريب الآن إلا أطلال وخرائب، منها بقايا الحمام الروماني، وأطلال معبد أتريب، فلو صعدت التلة المجاورة للحمام، ستجد حفرة بها أعمدة رخامية ضخمة مكسورة بجوار قواعدها، وعشرات من تيجان الأعمدة المنقوشة على شكل زهرة اللوتس، والمعبد والحمام قريبان من مقبرة الملكة تاخوتي بقناعها الذهبي الرائع، وحليها الموجودة في المتحف المصري.

وآثار أتريب متناثرة في المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية، وفي متاحف فرنسا وإنجلترا وألمانيا عندما تم نهب آثار مصر ومسلاتها أيام الاحتلال.

وفي نهاية السبعينيات عند بناء كلية العلوم عثر الصعايدة الذين كانوا يحفرون الأساسات على آثار كثيرة.. ذهب وأساور، وأحجار كريمة، وظلوا سنوات يهربونها إلى الصعيد، وعندما شاع الأمر، هجم أهل بنها والقرى المجاورة، يبحثون في بقايا الردم والأراضي المحيطة، ووجدوا عملات ذهبية بلا حصر، وحضر تجار الآثار من القاهرة، ودامت هذه التجارة شهورًا، وأذكر أن طفلا وجد جرة فركب عليها، وتشبث بها بتشجيع أبيه حتى نزف أنفه دمًا، وظل حتى حضرت الشرطة، وطردت الناس من فوقه، وأخذوا الجرة.

* * *

حملت الكنز ولم أصدق أن بين يديّ رائحة أجدادي، وأخرجت لفائف البردي، وكانت بحالة جيدة إلا بعض التمزق عندما حاولوا حرقها، ووجدت سطورًا مطموسة..

كان عليّ أن أنشط معرفتي بالهيروغليفية، وظللت عامًا محاطًا بالقواميس.. أترجم حرفًا حرفا، وكلمة كلمة، وأنا في قبضة شهوة المعرفة، وبدأت أفتح نافذة لأطل على التاريخ، وأنا أفك شفرة اللغة القديمة، والبرديات تتفتح كوردة تتفتح للنحل والشمس والمياه.

* * *

احتوت البرديات مذكرات عن رحلة حور ابن أتريب إلى بلاد الهند قبل احتلال قمبيز الفارسي لمصر بعام، وكيف قابل المستنير بوذا، وعن أحوال مصر في تلك الفترة..

والقصة تثبت حقائق كان يشك فيها الكثيرون، فطريق التجارة لم يكن إلى بلاد بونت جنوبًا، وإلى سوريا في الشمال فقط، بل امتد طريق التجارة إلى الهند وشرق آسيا، ويعتقد بعض المؤرخين أن المصريين القدماء هم أول من اكتشفوا أمريكا، وأنا أصدق هذا الأمر كما أصدق الشمس في الظهيرة، وكما أصدق أن فلاسفة الإغريق سرقوا حضارة مصر، ونسبوها إلى أنفسهم، عندما جاءوا إليها قراصنة علم وفكر، في عملية منظمة، ربما تكون أكبر عملية سرقة في التاريخ.

لن أتحدث عن الجهد المبذول، فهذا لا شيء، وقد طبعت الكتاب على نفقتي لأضعه أمام المهتمين بالتاريخ، ولم يخل الأمر من منغصات، فقد ظن أمين أنني بعت الأوراق بألوف الجنيهات، وطالب بنصيبه، فقلت له: ها هي الأوراق، إنها لا تساوي شيئًا، ولا تساوي حتى عشرة جنيهات، ولكنه ظل يشك بي دائمًا، وفيما يلي الترجمة الكاملة للبرديات.

أوراق حور

تقديم

كتبت هذه الأوراق أثناء رحلتي إلى بلاد هندوس قبل احتلال قمبيز لأرض كيميت، وأكملتها بعد خمسة عشر عامًا من الاحتلال الذي لم نقصر في جهاده، ولكنه ما زال جاثمًا على أرضنا، ونحن الآن في أحلك أوقات كيميت، وأشدها هوانًا.. وقد أردت تسجيل هذه الأوراق ليستفيد منها الناس.

وأنا لا أقصد أن أكتب تاريخ مصر، فهذا فوق قدرتي وطاقتي وأهدافي، فتاريخ مصر يحتاج جيشًا من المؤرخين المدققين، ليفصلوا الجوهر عن الخرز، ويثبتوا أمومة مصر للعالم.

وكيميت تسمى الآن مصر، وذلك بعد أن تحورت من شهر مسري، شهر ميلاد الإله رع، وحدث ذلك بعد انتشار مذهب إخناتون، وكان الإله رع يبلغ قوته وكماله وعظمته في شهر مسري، وقت فيضان النيل، عندما يغمر أرض كيميت، فتولد الحياة، وتتجدد، وسوف أستخدم الاسمين.

حور بن أوناس سوكر

واقع الحال

قابلت المستنير بوذا.

أنا حور بن أوناس سوكر.. الشاعر والبحار، أنا الذي اضطرب قلبي نفورًا من انهيار الحضارة في إمبراطورية كيميت، وانهيار أخلاق شعبي، فربة الحق والصدق والعدالة ماعت لم تعد موجودة إلا نقوشًا، ولم يعد أحد يحترمها أو يقدرها، فانكسر قلبي إلى ألف شلو عندما انكسرت القيم النبيلة التي تغنى بها الحكيم الشاعر أمنموبي.

إن كيميت أرض الآلهة، والشعراء، والحكماء، والفنانين، والعلماء.. أرض السحر والبهاء، اهتم بها الإله الخالق اهتمامًا خاصًا، فصنع رجالها بدقة ومهارة، وملأ أجساد نسائها بالفتنة، وأبدع في تشكيلهن منذ بداية الخلق.

ولكن تغيرت القلوب حتى أنني -بإرادة كاملة- أردت أن أسلم نفسي إلى أنوبيس، ليقودني إلى الشاطئ الغربي، أو أترك حياة الفكر والفن، وأتسول مثل نصف الشعب الآن، والذين يطاردونك في كل مكان بندائهم المشهور: أحببني، أحببني، وحياة آمون، وإيزيس، وحتحور، فلتجلس في مجلس الآلهة مكرمًا. أحببني.

نسي الكيميتيون تعاليم بتاح حتب، وأصبح الإنسان القوي في هذا الزمن لا يحتمل الحياة في كيميت، فكيف بشاعر مثلي، أنا الذي كنت أسير بجوار النيل منتشيًا؛ لأنني ابن هذه الحضارة، أنظر الآن إلى الواقع وتنهمر دموع قلبي المثقل.

كان المصري يقدس الحياة في كل مظاهرها، ويعظم كل مخلوقات الإله الواحد، وكان الأكثر رقة في معاملته لمفردات الحياة، حتى أنه كان يترك أمتعته تحترق، ويخاطر بحياته لينقذ قطًا من الحريق.. وكان يعرف أن فضيلة الرجل المستقيم أحب إلى الله من ثور الرجل الظالم، وكان الشعب يعرف –كما علمه حكماؤه– أن أرغفة قليلة مع قلب سعيد خير من الثروة مع التعاسة.

هكذا كنا وكل القيم التي تصنع حضارة عظيمة هي قيمنا، ألم يقل أمنموبي:

لا تنم الليل وأنت خائف من الغد،
لأننا لا ندري عندما ينبثق الفجر
ماذا يكون الحال في الغد؟
الله في كماله، والإنسان في عجزه
فالإنسان يريد أن يفعل شيئًا
والله يفعل ما يريد

إنني في عجز قلبي الآن أحاول أن أستدفئ بحكمة أجدادي؛ لأحتمل واقع حالنا، والذي دفعني للهرب، والفرار في البحار.. أطارد الأوهام والأحلام، وتطاردني الأضغاث والكوابيس، كأنها مكلفة بي، وأعرف أن الضربات تعمقت في الجذع، والجذور جفت عنها مياه العلم والفن، رغم المحاولات التي يبذلها المحبون.

وقعت مصر مرات، وانكفأت مرات، ولكنها كانت تقوم أقوى مما كانت، أما هذه الكبوة فأعرف –أنا الشاعر المتبصر– أن دائرة الهزيمة الأبدية أوشكت على التمام.

* * *

أفسد كهنة آمون على الشعب عبادته النقية، والتي لا تؤله الحيوانات، والطيور كما هو شائع الآن، وكرسوا مجهودهم للغيبوبة الدينية، هؤلاء الكهنة الأوغاد رهيبون حقًا، بالكحل في عيونهم، ورءوسهم الحليقة، بنظراتهم الشهوانية لمؤخرات الجميلات، بالعطور التي تفوح منهم، فإذا سألتهم يقولون: كنا نعطر الإله.

لم يعد أحد يثق بشيء، وانتشرت السرقة، وانتهك اللصوص المقابر من أجل الذهب، وتم تشويه المومياوات للحصول على أصغر قطعة ذهبية، بل إنهم يسرقون لفائفها ويتاجرون بها، ولولا الملامة لطبخوها، من الآن في طول مصر وعرضها يستمع إلى الحكم القائلة:

لا تزحزحن الحد الفاصل بين الحقول، ولا تتعدين على أرملة.

ومن يفهم الآن مقولة أمنموبي:

إن العدالة خالدة الذكر، فهي تنزل مع من يقيمها إلى القبر، واسمه لا يُمحى من الأرض، بل يذكر على مر السنين لعدله.

أصبح المصري الآن يضحك ملء شدقيه بحماقة عندما يستمع إلى توصيات الميت:

إني أعيش على الحق
وأتغذى من عدالة قلبي
لقد فعلت ما يقول به الناس،
وما يرضي الآلهة
أعطيت الجائع خبزًا، وسقيت الظمآن،
وكسوت العاري
ونقلت في قاربي من لا قارب له.

أصبح الحال كما وصفه الحكيم أبور في إحدى فترات الضعف حيث يقول:

انظر! إن الرجل الآن يذبح أخاه

من أمه، فما العمل؟

وإن الرجل يُذبح بجوار أخيه،

فيتركه وحيدًا، لينجو بنفسه.

والرجل الآن ينظر لابنه نظرته لعدو،

وأصبح الرجل يذهب إلى الزرع وهو مسلح

ويقول الرجل الأحمق:

إذا عرفت أين يوجد الإله سأقدم له قربانا.

ليت العالم يتخلص من الغوغاء، وتنفض المشاحنات،

فقد ترك الحراس أماكنهم وقالوا: لنذهب لننهب.

* * *

المجرمون في كل مكان،

والقاذورات منتشرة في كل البلاد

تحول النهر دمًا من القتلى،

فهل يشرب الإنسان منه؟

والناس يختبئون في الأعشاب،

ليسلبوا المسافر متاعه، ويقتلوه

وصار العبيد أصحاب عبيد

* * *

لم أعد أعرف بلدي، وقلبي مثقل بالألم، ولا حل إلا السفر الطويل..

رحلة ثانية إلى بلاد هندوس.

رحلة حج وذكريات

قبل السفر إلى بلاد هندوس كان لا بد أن أحج إلى مدينة الأهرام المقدسة، لأملأ قلبي برسوخ حضارتي، وأقابل الكاهن العالم سوتي صديقي، وأشد المصريين استنارة، وأزور أقاربي، وأبحث عن تي، ربما أراها مرة أخرى، فأتأكد أنها كانت حقيقة.

تركت سفينتي في المرفأ لإجراء بعض التجديدات، وركبت سفينة من السفن المتجهة إلى مدينة أون مقر عبادة الإله رع، ذات المعابد العظيمة، والمسلات الفخمة المكسوة قممها بالذهب، والتي ترمز لعبادة الشمس.

من أون اتجهت إلى مدينة الأهرام المقدسة.. تملأ الرهبة قلبي في هذه المدينة بأسوارها الجميلة، بأعمدتها المرتفعة ذات القمم المنقوشة بإحكام، ولها تيجان على شكل أزهار اللوتس، ومعابدها المزينة بألوان مناسبة لتعميق الشعور الديني المطلوب.

ظل الشوق يملأ قلبي حتى وصلت، واندمجت مع بهجة المدينة، وكأنني ولدت هنا، ورأيت الحجيج وهم يبتهلون إلى بلهول، ويقدمون قرابينهم إليه بابتسامته الإلهية التي تغمر الروح بالجمال والمهابة، وتشيع الاطمئنان في القلوب بألوانه

المشرقة.. ورأيت بيوت الحياة المتميزة، والتي يتعلم فيها الطلاب والكهنة الشباب الذين يرتلون الأناشيد الدينية، وتعاليم أمنموبي الشعرية بروعتها، وتعاليم بتاح حتب، وآني، وقصة الفلاح الفصيح، وقصة سنوحي. كما يدرسون رحلات المستكشفين الذين جابوا العالم البعيد، ويدرسون الهيروغليفية الأصلية التي يتحاور بها الكهنة الشباب حليقو الرءوس في طرقات المدينة وعلى مقاعدها، وحضرت لهم حلقة نقاش عن الهرم الروحي، ملأت مشاعري بالغموض الساحر، فحكاية ذلك الهرم الأسطوري تملأ روحي بالأحلام والشغف.

* * *

عندما يشرق رع على المدينة المقدسة، تنعكس أشعته على أحجارها البيضاء المصقولة اللامعة لهرمي خنوم خوفو، وخفرع، وعلى التحفة الثالثة لـ "من كاو رع"، بلونها البني الفاتح، وعلى عشرات الأهرام الصغيرة للأمراء والملكات، وينعكس بريق الشمس بالفرح على قمم الأهرام، وعلى تلك الهريمات الذهبية، وتغمر الأشعة الوادي، كما تنعكس الأشعة على معابد الوادي، وعلى بيوت الحياة، وقاعة التاريخ، والمرصد الفلكي، وقاعة العلوم، وباقي مباني المدينة.

مدينة الأهرام تشرق بأنوار وأشعة تملأ الروح بجمال لا مثيل له، إنها أجمل مدينة في العالم، هنا يقف الآشوريون،

والكوش، والجريك، وغيرهم من الذين يزورون مصر للعلم والسياحة والتجسس، يقفون بلا حراك عندما يشاهدون مدينة الأهرام المقدسة من بعيد، فيسيطر عليهم ذلك المنظر الذي يسعد الآلهة، كما سحرني وسيطر على روحي عندما زرت المدينة مع أبي، وأنا في الثانية عشرة من عمري، وكما يسيطر عليّ الآن.. هنا قلب العالم.

* * *

وصلنا أنا وأبي –منذ عشرين عامًا– إلى مدينة الأهرام في نصف يوم، وظللنا ثلاثة أيام في بيت عمي، شاهدت المدينة كأني أشاهد السحر مجسدًا، وشاهدت الإمبراطورية القديمة كلها في قاعة التاريخ، تلك القاعة الفسيحة المبهرة، فلو أردت أن تبكي من الروعة، فهنا وقت البكاء وزمانه.

تقع قاعة تاريخ مصر شرق المدينة بجوار السور، وهي مبنية على الطراز القديم، وطول القاعة أربعمائة ذراع، وعرضها مئتا ذراع، ينيرها الضوء الطبيعي للشمس في هندسة تليق بمهندس مصري يستوحي فن أجداده، وملحق بالقاعة في الخلف ورشة فنية.. كان فيها قديمًا أمهر الحرفيين والفنانين في عصر بسماتك الأول العظيم منذ أكثر من قرنين، عندما بث في مصر من روحه الشجاعة، وفتح أبوابها للعالم، وتدفق السياح والمتعلمون، فبنى قاعة التاريخ لأهداف عديدة، وهي من أهم إنجازاته.

ارتفاع حوائطها عشرون ذراعًا، وفي الوسط ترتفع الأعمدة إلى ثلاثين ذراعًا.. فوسط القاعة يرتفع عن الجانبين، لتدخل الشمس.. وتم تقسيم المكان حسب تاريخ مصر.. وبعيدًا عن الحوائط بعدة أذرع، تم وضع نماذج ومجسمات دقيقة في صفين لكل معابد مصر بارتفاع عشرة أذرع، وأمامها التماثيل والمسلات، وعلى الحائط الأخير يوجد مجسم ضخم لخريطة الإمبراطورية، وبجوار الحائطين الجانبيين الطويلين تماثيل بالحجم الطبيعي لملوك مصر بداية من الملك الغامض بي كارع الذي حكم مصر قبل الملك مينا بألفي سنة، وحتى بسماتك الثاني، وعلى الحائط بجوار كل ملك منقوش تاريخ العصر، والآلهة، والأناشيد الدينية، والأشعار، والقصص.

كل المعابد، كل مدن مصر مرسومة، تكاد الحوائط أن تنطق، وحابي على الحائط الأخير مرسوم بعناية فائقة من بلاد الكوش جنوبًا إلى البحر الشمالي، بفروعه السبعة حتى أنك لو كنت ظامئا لظننت المياه على الحائط مياها حقيقية، ومددت يدك لتشرب.

دار عقلي من سحر المدينة، وهي تحتاج عامًا لزيارتها، ومن وقتها أصبحت العاشق الأول لبلادي التي لا يقدرها الناس حق قدرها، وعاهدت نفسي –أنا ابن الثانية عشرة وقتها– أنني سأدرس في يوم من الأيام في بيوت الحياة الملحقة بها.

اشتريت في تلك الزيارة أول بردية من الشعر الغزلي، وبردية من أناشيد إخناتون، فلم يستطع أحد القضاء على قصائده المشعة بالضياء والفرح.. واشتريت سوارين من الخرز والفضة، وسكينا برونزيًا، وتمثالا في حجم الكف للإلهة حتحور ربة الحب والجمال، وتمثالا للإله تحوت الكاتب الصانع، وقصة الفلاح الفصيح كاملة، عندما تمسكت بها فاشتراها أبي مرغمًا، ومعها قصة سنوحي.. كما اشتريت بعض التمائم، والخواتم، والجعارين المقدسة لأصدقائي.. والحقيقة أن كل ما اشتريت سيكون ملكًا لأصدقائي أيضًا.

* * *

كانت رحلة الحج أثمن ما في حياتي، وكم ألححت على أبي أن تطول الزيارة عدة أيام أخرى، ولكنه رفض لارتباطه بأعمال خاصة بتجارته، ووعدني بزيارة ثانية في العام القادم.

اكتشفت جسدي في تلك الرحلة، واكتشفت بهجة الجنس، وبهجة الحواس، والرغبة المسيطرة، والنهم للجمال، فقد انفتح باب الشهوة أمامي واسعًا، وحرقت الرغبة أيام شبابي حرقا يوميًا.. أنا المتطهر المجذوب إلى النور، جربت الجنس الحقيقي للمرة الأولى في الليلة الأخيرة تحت عيون الإله خنسو في منتصف شهره القمري، وكان يبتسم في السماء، ويبارك فرحتي مؤازرًا مشجعًا.

كانت تي المفعمة بالإثارة جارة لأقاربي في قرية إيبيس الموجودة في سفح مدينة الأهرام، وهي قرية منسقة، وتخدم الحجاج والزوار والدارسين والسائحين، وسميت نسبة للطائر المقدس الذي يعيش في الأحراش والبوص حول البحيرة في شمال القرية، وقد جاء عمي حويا للدراسة، واستقر في إيبيس.. وفى بيته رأيت تي أجمل مصرية في عيني، بلثغتها الساحرة التي تملأ قلبي، وتسيطر على روحي.

تي تكبرني بعامين، وهي جنية مجربة، وكانت تستخدم أعشاب حابو المشهورة لمنع الحمل.. تعارفنا في اليوم الأول، حينما غمرتني ضحكتها الصافية اللامبالية، ولمستها في اليوم الثاني، وقلت لها: إن عينيك هما الأجمل في مصر، وشفتيك وردتان، وهي تضحك مني أنا الريفي الذي سقط عند قدميها في اليوم الثالث.

* * *

أخذني عمي حويا في اليوم الثاني إلى مرصد مدينة الأهرام، وهو بناء شامخ مربع من أسفل ومستدير في الدور الأعلى، وفي الدور الأول توجد مكتبة المرصد، وخرائط مجسمة للإمبراطورية في عز مجدها، وعلى حائط كبير رأيت نقشًا مستديرًا للسماء، ولأبراج النجوم، يتكون من أرضية سوداء مرصعة بالنجوم، تلك الآلهة التي تعيش الأرواح بينها مغمورة بأنوارها.

كان الكهنة العلماء والدارسون يعكفون على مخطوطاتهم في حجرات العمل، وعلى آلات الرصد والقياس.. سيطر على روحي هذا الجو، فللمعرفة شهوة مثل شهوة الجنس.

صعدنا أعلى المرصد، وهو مجاور لسور المدينة، بعد قاعة التاريخ.. رأيت منظر الصحراء صافيًا وفياضًا بالنور، وأنا لم أشاهد الحياة من هذا الارتفاع من قبل.

رأيت الغزلان ترتع بعيدًا، والثعالب المقدسة رمز الإله أنوبيس تسرع بين الأشجار المتناثرة والحشائش خلف فرائسها، وعلى سطح المبنى كانت توجد كثير من الآلات التي أخذ عمي يشرح لي مهمة كل منها.. مثلا هنا آلة مدرجة وبها خروم على هيئة الدب الأكبر لتحديد خريطة السماء، ولكني وقفت مسلوبًا أمام قطعة مستديرة من الزجاج الشفاف في حجم شبرين من الأمام، وطول ذراع مركبة بشكل محير، نزع عمي عنها غطاء الكتان السميك، وقال: إن الكهنة العلماء يدرسون السماء بهذه الآلة، وهي من أسرارهم.. أمسك عمي الآلة وجعلها في اتجاه الصحراء، فكاد قلبي أن يتوقف، وأنا أرى الغزلان بعيونها السوداء الجميلة، حتى أنني مددت يدي لأربت على ظهر الغزال الأقرب، فضحك عمي وقال: إن العلماء يشاهدون النجوم ليلا، كما تشاهد عيون الغزلان وأهدابها.

امتلأ قلبي بشهوة جارفة، وبكيت من الروعة، وعاهدت نفسي عندما أكبر أن أعمل في هذا المكان.. عندما هبطنا إلى الدور الأول رأيت الكهنة العلماء، واعتقدت أنهم أنبل البشر.. هؤلاء الذين يمتلكون هذه الحقائق بعيدًا عن صراع الآلهة وكهنة الآلهة.

أهداني العالم سوتي –صديق عمي –بردية فيها صورة السماء ليلا، ما زلت أحتفظ بها.. وسوف نصبح صديقين فيما بعد، عندما يأتي مع عمي لزيارة أتريب. ولد سوتي وعاش في منف القريبة من المدينة المقدسة، وعمل في بداية حياته في معبد الوادي الخاص بالملك سنفرو قبل أن يخربه اللصوص، ويسرقوا كنوزه، هؤلاء الأوغاد الذين يمكن أن يقتلوا آباءهم من أجل الذهب.

مدينة الأهرام هي النور الوحيد الباقي في الإمبراطورية، وقد جعلت الحكومات المتعاقبة همها الحفاظ عليها، وكأنها أدت واجبها تجاه الأسلاف، وهي الواجهة الجذابة أمام الأجانب، ولكني أخشى أن يومًا سيأتي، سيلحق فيه بهذه المدينة ما لحق بمعابد وأهرام سقارة، وسنفرو، وكثير من المعابد والأهرام والمقابر في طول مصر وعرضها، فالربة سخمت الأصلية المفزعة تختبئ في كل مكان، لتفترس حياتنا، ولها أتباع يجتهدون لتخريب روح مصر.

بعد زيارة مرصد المدينة زرنا المكتبة الكبرى، وكنت أنظر إلى لفائف البردي، المنسقة حسب الموضوعات على أرفف عميقة، وكأنها لفائف تتكلم بالسحر، وتحتوي على كنوز سهلة المنال للعشاق، ولا تكفي رحلة الحج القصيرة هذه للجلوس والقراءة، ولكني عاهدت نفسي أن هذا المكان هو مكاني الصحيح في يوم من الأيام.

* * *

عدنا إلى بيت عمي، وأنا أشعر أن جسدي صار خفيفًا، وأنني صرت "با" خالصة في السماء.. آلمتني كل هذه السعادة؛ لأنها كانت فوق طاقتي أنا المنذور للألم. نمت قليلا وصحوت والشمس تميل إلى الغرب، لتهب العالم الآخر الضوء والحياة، كان النسيم الرقيق يغمر وجهي مع الأشعة اللطيفة.

جاءت تي وخرجنا معًا، وجلسنا بين العشاق حول البحيرة الصافية المتكونة من الفيضان، وتعيش فيها ألوف الطيور الملونة.. قالت تي: هيا نذهب إلى بيت الموسيقا والرقص، فأطعت مبهورًا.. كان بيت الرقص يطل على البحيرة، وله واجهة عريضة، وأمامه بعض التماثيل لعازفات على القيثارة غاية في الإبداع.

جذبتني تي في زحام الاحتفال بعيد الإلهة حتحور، وجلست، ونظرت فاغرًا: ثلاث راقصات، تربط كل واحدة منهن شريطا رفيعًا حول مؤخرتها، وتعقده أمام فرجها.. وكل واحدة أجمل من

الأخرى، هذا هو الجمال الحقيقي.. كن يتمايلن ضاحكات على صوت القيثارة، بينما يصفق الحضور مع الأنغام، والجمهور يهتف مشجعًا، احترق قلبي وأنا أشاهد للمرة الأولى الجمال العاري الذي ينساب أمامي في حركات مثيرة، ويتدفق في قلبي، بينما تلك المجنونة تي تقرصني في فخذى ضاحكة، سيطرت على نفسي بصعوبة، ودخلت الحمام، ورطبت عضوي بالماء البارد، وأحكمت ربط اللباس الداخلي، حتى لا ينتصب عضوي بشكل فاضح، وأنا في مهب كل هذا الجمال، وكل تلك الإثارة المتدفقة لتلك الراقصات اللامعات كالجواهر.

عندما عدت أغمضت عيني، ونقلت عقلي إلى مكان آخر، ووضعته في قلب مأساة؛ لأصد هبوب رياح الفتنة الساخنة على قلبي الضعيف الضعيف، شربت قليلا من الخمر قبل أن تبدأ الرقصة المشهورة في مصر كلها؛ رقصة الطير العاشق، قامت تي وسحبت يدي، ودخلنا ساحة الرقص. كل شاب مع فتاة، ومن لا يرقص يتابع مشجعًا، إنها الرقصة الشعبية الأولى، وكان بعض الأجانب يرقصون مع بعضهم البعض أو مع مصريات من بيت الرقص.

قلت لها: أنا لا أحسن الرقص، فقالت: افعل مثلي.. فعلت كما تفعل، والشمس تغمر القاعة قبل الغروب بأشعتها الذهبية، وتغمر الجميع بسحرها الأسطوري الذي يقدره الشعراء، كل راقص يرفع يديه كالطائر على مستوى الكتفين،

ويميل قليلا يسارًا ويمينا، ويميل برأسه مقابل رأس من ترقص معه، على صوت الموسيقا التي تحرك الأحجار، ويدوران معًا.. وبعد قليل يضع كل طائر جناحيه على كتفي الطائر الآخر، ويتمايلان يمينا ويسارًا، وعندما تتغير النغمة يضع كل طائر جناحيه على خصر قرينه من الجانبين، وعندما ترتفع الموسيقا يلف الطائر الراقص ذراعه حول حبيبته، ويلتصقان.

كنت أحاول أن أجاري كل ذلك عندما دفعت تي فخذها الملتهب الناعم بين فخذيّ، فطلبت الرحمة من الثالوث الإلهي، ومن التاسوع، وانتهت الرقصة بذراع الراقص حول خصر حبيبته، وذراعه الآخر تحت رأسها، ومع الأنغام الأخيرة يميل عليها، ويقبلها قبلة سريعة بينما يصفق الجميع.

كنت أعرف رقصة الطائر العاشق نظريًا، وكان الأولاد يرقصونها مع بعضهم البعض تدريبًا على رقصها مع الفتيات، وكانت رقصتي الأولى في قرية إيبيس في سفح المدينة المقدسة.. وعندما خرجنا قالت تي في جرأة: إنت ما كنتش ماسك نفسك، فقلت: لا.. دى كانت عقدة الحزام اللي اصطدمت بفخذك، فضحكت في غنج قاتل، وقالت: ولا يهمك.

في اليوم الثالث تركت أبي وعمي، واصطحبتها وسط الزحام وانتهزت كل فرصة لألمسها، ولكنها كانت تمسك يدي وتجرني؛ لأشاهد عيد حتحور، ورأيت الكاهنات يحملن الإلهة حتحور

محاطة بشجرة الجميز بثمارها الذهبية، ويرتلن الأناشيد، وأمام الإلهة كانت الكاهنة الأولى تتقدم الإلهة راقصة رقصًا دينيًا شفافا، لم أشاهد في حياتي راقصة بهذا الجمال، ولا بتلك الفخامة، تغمرها المهابة الدينية، لم أصدق أن في مصر امرأة جميلة مثل نفرت ست، وهذا هو اسمها، إنها مثل إلهة، تشع نضارة وتضيء من الداخل، إن من تقع عيناه على نفرت ست لا يمكن أن ينساها حتى النفس الأخير في حياته، فهي التجلي المشرق للإلهة حتحور، والجمال المقدس هو شرف الكاهنة الأولى أو كبيرة الكاهنات.. لا يوجد في سحرها خدش بسيط.

اتجه الجمهور الذي أسكرته نفرت ست إلى شجرة الجميز المخصصة لعبادتها، والمحاطة بسور جميل أمام معبدها، بعد أن لفوا حول قرية إيبيس، ودارت الكاهنات الفاتنات حول الشجرة سبع مرات، ووضعن التمثال بجوار الشجرة، كنت وتي ملتصقين في الزحام، وكنت أحدق في عينيها السوداوين.. أتأمل فضاءهما، وتغمرني أهدابهما السوداء بالمشاعر.

تواعدنا أن نتقابل ليلا خلف منزل عمي على العشب الجاف في ضوء القمر الشفاف، انتظرتها بشوق يهزني، وأخذت أرجو الإله آمون أن تحضر تي، ووعدت القوية إيزيس بقربان ثمين لو وفت تي وعدها، ودعوت حتحور بكل قلبي أن تحضر تي.. وحضرت مسرعة وقالت : هربت، فضممتها، وأخذت أشم رائحة جسدها وشعرها، وقبلتها قبلتي الثانية الحقيقية التي ما

زلت أشعر بطعمها الشهي حتى الآن، بعد مرور كل هذه السنوات.. قبلتها ألف قبلة، وأرقدتها على العشب، ورفعت رداءها الواسع الرقيق، وعضوي منتصب بشكل لم أعرفه من قبل، والخبيرة تي ترشدني متأوهة، وتدخلني جنتها، ويدها تتحسس عضوي، وتوجهه إلى فرجها، ولم أنس شهقتها، ولا ذلك الصوت المقدس للاحتكاك الأول، للنعمة الحسية التي وهبها الخالق العظيم للإنسان الضعيف، فجعل لحياته قيمة ومتعة بلا حدود، وجعله يحتمل الحياة.

رقدنا متلاصقين ننظر إلى الإله خنسو يضيء سماء الليل، ونقيق الضفادع يأتي من بركة قريبة، والشغف يتدفق في قلبي أنهارًا بجوار تلك المفترسة الرائعة التي لا تشبع.

سأعود لأصدقائي بكنز من الأفكار والحكايات، وبطولتي الجنسية، أصدقائي الذين لم أكن أظن أنني يمكن أن أحيا بدونهم، وكنا نتقابل يوميًا، بل في اليوم مرتين، وعندما مرت السنوات، واختلفت طرقنا، أصبحنا نتقابل كالغرباء، وقد يعطي أحدنا ظهره للآخر، فعلى طريق الحياة تتساقط منا مشاعر واهتمامات، ونحيا لنبحث عن مشاعر أخرى، أو عذابات لذيذة، أو أشواق مفتوحة على الحياة.

* * *

قبل أن نفترق في صباح اليوم الرابع أهديت تي سوارًا من الخرز والأحجار شبه الكريمة، دفعت فيه ما تبقى معي من نقود، وأهدتني قلادة حور الذهبية، ولم أخلعها إلا بعد أن عرفت ميريت التي أشرقت على حياتي مثل شهاب، وبدلت قلبي وسمائي.

أما الألم الذي أهلكني شوقا إلى تي أثناء عودتي مع أبي إلى أتريب، فقد ظل يقض مضجعي، وظللت أسابيع في حالة بين الصحوة والنوم، أسترجع تفاصيل لقائي الجنسي الأول تفصيلة تفصيلة، وأنتصب بشكل شبه دائم، وأخذت أبحث عن بيوت الجنس، وأسير خلف عضوي، ذلك المجنون الذي وجه حياتي، فعشت سنوات في قبضة الهوس، وارتكبت حماقات وحماقات.. يا لها فترة من العمر تدعو إلى الشفقة والرحمة والتفهم!

عرفت –من قسوة الألم– أن كل متعة مدفوعة الثمن أضعافًا، وأن إله الحظ له تصرفات غير مفهومة، وغير مبررة، وتمنيت كثيرًا أن أكون إلهًا، أو ابن إله، لأمسك بمقادير حياتي، أو يسعدني الحظ برؤية الهرم الروحي، هرم الخلود، ذلك الهرم الأسطوري، حلم الكهنة، والمفكرين والشعراء، والمرضى، والمهووسين، وأصحاب الكوابيس والرؤى، على مر العصور، والذي يشاع عنه أن من يدخله تتحقق أحلامه.

* * *

بعد عامين، وفي الرابعة عشرة من عمري، وبعد وفاة أبي، عدت إلى المدينة المقدسة، لأدرس الشعر، وظللت عامًا، ولكن تي كانت قد تزوجت، وتركت إيبيس إلى قرية قريبة من منف، ولم أستطع العثور عليها، وكأنها كانت وهمًا، وعكفت أسبوعًا على الصلاة والدعاء في الأماكن المتوقعة لظهور الهرم الروحي، جنوب غرب سقارة، وقرب هرم سنفرو، كان كثير من الكهنة بأرديتهم البيضاء يصلون حولي، ولكن الهرم الروحي لم يظهر لي، ربما كان وهمًا، وسمعت أن من دخله أربعة منهم أمحتب المهندس العبقري للهرم المدرج، وأمنحتب بن حابو، وأمنموبي الشاعر الحكيم، وإخناتون، ولا يعرف أحد الحقيقة.

وداع سوتي

تركت نفسي لمدينة الأهرام المقدسة، قبل أن أفاجئ صديقي سوتي، عالم الفلك، والباحث المدقق، والعارف بالحقائق، وحبيب ماعت، والرسام المجدد، وصاحب المجسمات الفلكية الدقيقة في مرصد مدينة الأهرام.

استقبلني باسمًا مرحبًا، فاتحًا ذراعيه في بيته الذي له إطلالة جميلة على الأهرام الفخمة المهيبة الملغزة.. تحادثنا طويلا، وسألني عن آمون حتب، فقلت له: إنه فقيه جاهل، ولكن سلطته كبيرة، فقال: أمثاله يحكمون مصر الآن، ويحركهم حقد قوي.. إنهم مجموعة من الأولاد المتخلفين، يحاربون بعضهم بعضًا، ولا يعرفون ضلالهم، وهذا حال جميع الضالين، فقلت: أتقصد عقيدتهم؟ فقال: كل هذه الآلهة بلا قيمة، وقد انحدرت عقول الناس تمامًا، عندما حولوا التعظيم، والاحترام، والدهشة، والإعجاب أمام المخلوقات، ومظاهر الحياة إلى تأليه بسبب كهنة آمون، فقلت: نعم؛ لأن الكهنة وكثير من المستفيدين، يؤازرون بعضهم بعضًا. قال: إنهم عصابة من اللصوص، ولكن يجب عدم التصادم معهم، فيكفي أن تمتلك الحقيقة في قلبك يا صديقي.

لقد ظللت عشرات السنين يا حور أراقب من مرصد المدينة المقدسة حال القمر والنجوم ليلا، وأرصد الشمس نهارًا، وقد تأكدت أن هذا العالم كبير ومهول، فالنجوم بلا حصر.. إنها أكثر من الرمال، ولكنها دقيقة بشكل محير في دورانها وانتظامها، وهي بعيدة جدًا، ولا شك أنها كبيرة، ولها تشكيلات مضيئة تسحر العقول، وعندما أعود إلى البيت، وأجلس في الحديقة –التي نسقتها بهذا الشكل الفلكي الذي أعجبك– بعيدًا عن صخب الأولاد، أتأمل الورد بلا ملل، ولو أخذت أية مفردة من جزئيات الحياة لوجدتها مدهشة، وخلف جمالها روح أكبر من كل الخرافات التي تملأ أرض كيميت الآن، فالناس عبدت ما تخاف –أحيانًا– واسترضت ما لا تفهم بالقرابين.. وتأكد يا حور أنه عندما يصل أي دين نقي إلى العامة، فإنه يتشوه على مر السنين، ولكن أرجو ألا تصدم أحدًا، فالكل ضعيف ضعيف في هذه الحياة، ويستريح الجهلاء إلى ما ألفوا، وكما تعرف فإن مواجهة هذه العقائد فكريًا تشبه مواجهة أسد جائع، لذلك إذا وصلت إلى حقيقتك، فارحم الجميع؛ لأنهم لا يعرفون ما تعرف، وهم غير مستعدين أبدًا لسماعك وأنت تطعن في عقيدتهم، حتى أفقر فلاح في أبعد كوخ في مصر إذا شككته في عقيدته التي تنظم حياته، فماذا يتبقى له في الحياة؟

الشر في الحياة أضعاف الخير، وكم تم قتل ألوف الألوف بسبب العقائد الدينية المضللة! ولم ينتشر الخير في العالم بعد كل هذه الدماء.

يوجد الآن ألوف الآلهة المتصارعة، فإذا جلست مع إجريكي سيحدثك عن زوس ملك الآلهة عندهم، أو عن إفروديت التي تشبه حتحور، كما أن عبادة إيزيس منتشرة عندهم، وعشتار البابلية تُعبد في مصر أيضًا، وفي داخل مصر لكل مدينة كبيرة ملك للآلهة –كما تعلم– ورغم كل هؤلاء الآلهة فالفساد يحكم العالم، فربما كان الإله الكبير نائمًا.

لمصر إله واحد يعرفه الجميع، فقلت: اللعنة على كهنة آمون، فضحك وأكمل.. يسود الآن الشك والارتباك، وحروب الأمراء والكهنة، فقد مرت ألوف السنوات، ولم يقم أحد للحساب، وما زالت مومياواتهم راقدة، أو ممزقة، أو سرق اللصوص كل ما أعدته للعالم الآخر حتى التماثيل المجيبة، وهذا الأمر كشف تهافت العقائد كلها.

يا حور الحضارة المصرية أنهت دورتها، وكل هذه العقائد لم تعد تصلح، وسوف يزداد الجنون الديني مرافقا للشك والاستهتار، وعدم اليقين. مصر تحتاج الى دين مختلف، وإلى عقيدة تعتمد على العقل والتسامح، ولكن هذا الأمر حلم بعيد المنال.

فقلت: لقد عقّد الكهنة ما هو بسيط، وجعلوا الدين تجارة، وحملوا الناس مطالب هائلة باسم الآلهة.

فقال سوتي: أعتقد أن الخالق كامل، ولا توجد فيه شائبة من نقص، والكامل المكتفي بذاته لا يطلب من أحد شيئًا، لا صلاة، ولا قربانا، ولا حربًا من أجله؛ لأن أي طلب معناه عدم كمال الخالق العظيم، والصلة التي بيننا وبينه هي العقل، فالعقل قادر على التفكير، وأن يصل إلى الحقائق، وقادر أن ينظم الحياة بشكل مثمر وجميل، لو تخلص من الأهواء، فلا يمكن كما يقول الكهنة في جميع الأديان أن يفعل الخالق كل شيء، وأنه وراء كل خطوة، وحركة، ونفس، فالشر في الحياة أضعاف الخير، فهل الشر من فعل الخالق؟ وهل يرضى الخالق عن عذاب أبنائه الذين خلقهم؟ منطق الكهنة ضد الخالق.

قلت: إن الحياة غير مفهومة، لكنك لو عشتها لسعدت بها، ولو فكرت فيها كثيرًا لتألمت كثيرًا. إنني أغبط الأغبياء.

قال: هذه حقيقة يا صديقي، إن الحياة قائمة على القسوة والعنف.. هذا هو الواقع الذي درسته، وتأملته، فعندما كنت في رحلة علمية مكونة من جميع التخصصات إلى الصحراء الشرقية لدراسة حيواناتها، وأعشابها، وطيورها، وحشراتها، ومعادنها، ولكي نرسم خريطة تفصيلية، وهي الرحلة التي عمقت أفكاري، ووسعت عقلي وعرفتني أن قوانين الحياة لا ترحم، وهي

بلا قلب.. الحياة تنمو قوية جدًا، ولكن الموت أقوى، ويفتك بالجميع، فقد رأيت يا حور الغزال الجميل الرقيق، والذي لم يؤذ أحدًا، ولا يأكل غير العشب، رأيته وهو في قبضة الرعب، واللبؤة تطارده، وتقبض على رقبته.. هذا الذي ظل عامين يأكل، ويكبر في أسرة مسالمة، لن يكفي المتوحشة وشبلها إلا وجبة واحدة، ورأيت القطيع يقف بعيدًا، وظننت أن دموع أمه تنهمر من قلبها، ولا تفهم ما حدث.

فقلت: إنه أمر يدعو للتأمل.

فقال: وكثيرًا ما رأيت في حديقتي دبورًا يصطاد دودة كبيرة، ويحملها إلى جحره الذي فيه بيضه، وأعتقد أنه يشلها بسمه، لتكون طعامًا لصغاره، ثم يحكم إغلاق الجحر. وقد راقبت يا صديقي دبورًا آخر يقف على دودة في حجم الإصبع، دودة خضراء غضة جميلة، ثم يغرس إبرته في جسمها، وعندما بدأت الدودة تنتبه كان قد ارتكب جريمته وطار، وقد ظللت أراقبها أيامًا، كل يوم كنت أسرع إلى مكانها، وقد رأيتها تتألم، وتتعذب يومًا بعد يوم، ثم رأيت جسمها يتخرم –وهي حية– وكأن الجنون أصابها، ووجدت يرقات الدبور تخرج من جسمها، وقد جعلته كالمصفاة، بعدما أكلتها من الداخل، وتغذت عليها. كان المنظر مروعًا يا صديقي، ولو رأيت الثعبان وهو يبتلع فأرًا، والصقر وهو يصطاد الثعبان، لعرفت أن الحياة تأكل نفسها، كما تأكل الأفكار بعضها البعض، وكما تفترس العقائد العقائد الأخرى.

وتابع سوتي: أظنك سمعت عن الأضاحي البشرية، قلت: نعم، ولكن الله حمانا في مصر من هذه الطقوس البشعة، قال: نعم، ولكن كثيرًا من الأمم الأخرى، تقدم هذه الطقوس دائمًا، وأحيانا بأعداد كبيرة في أعيادهم تقربًا إلى آلهتهم، وكل إنسان يعتقد أنه على حق، وغيره على باطل، ولن أحدثك عن آلام البشرية، فأنت تدركها جيدًا..

إن الشجرة القوية، تأكل غذاء الشجرة الضعيفة، وتمنع عنها نور الشمس، فتذوي وتموت. كما رأيت ثلاثة ضباع يا صديقي تأكل غزالا حيًا.. لقد مزقوا بطنه، وكان يحاول النهوض للهرب، وبطنه مشقوقة والدماء تغمره، ولكن كيف يفلت من هذه الوحوش، وقد افترسته حتى النخاع، وهذه هي القسوة التي أحدثك عنها، ولكن هذا لا يمنع أن في الحياة جمالا فوق احتمال البشر، وهذا الجمال هو الذي يدفعهم إلى الحياة.. يكفي أن تضحك لك حبيبتك، لتتغلب على مصاعب الحياة، أو ترى أولادك يكبرون بصحة جيدة، لذلك على الإنسان أن يسير بالخير في هذه الحياة الغامضة على قدر ما يستطيع.

فقلت: بوركت يا صديقي، فكل ما قلت يدعو إلى التأمل والتفكير، فما دور الآلهة الذين يهتمون بكل خطوة، وكل نفس كما يقول الكهنة؟

فقال سوتي: إن الكهنة يتحركون داخل منظومة فاسدة؛ لأن تصرفات الآلهة المزعومة غير مفهومة، وغير مبررة، فالشر يسيطر على الحياة كلها كما وضحت سابقا، وإن الأب ليرحم أولاده، فكيف لا ترحم الآلهة البشر، ولا تنظر إليهم بعين العطف، مع أن الحشرات والحيوانات تعطف على أبنائها. لذلك أظن أن الخالق العظيم أكبر من أن يهتم بنا؛ لأنه يهتم بنفسه فقط، أو أنه خلق الحياة وتركها، وليس كما يقول الكهنة إن الإله يرعى الحياة في كل الأوقات، ساعة بساعة، فالواقع يكذب ذلك.. فلو نظرت إلى المآسي الإنسانية لحيرك الأمر تمامًا، ولو نظرت إلى طفل عاجز، وأمامه عشرات السنين سيعيشها عاجزًا محطمًا إلى آخر نفس في حياته، لزادك الأمر حيرة، فمن أين يأتي الشر إن كان الخالق يرعى الحياة؟

وأمر آخر يا حور.. لو افترضنا أن النفس البشرية تشبه الإناء، وأن هذا الإناء قد ملأه الكهان بالجهل، والخرافة، والنصوص الدينية التي يناقض بعضها بعضًا بشروحها، وتفاسيرها التي لا تقنع طفلا عاقلا، فإن هذا عبء هائل على العقل، ولن يكون للعقل مجال للعمل والتفكير، ولم تستوعب النفس شيئا مختلفًا غير الجهل والخرافة.

قلت: ما قولك في إخناتون؟ فقال: يا له من شاعر ملهم اكتشف الحقيقة! وقد هزته هذه الحقيقة هزًا عنيفًا. ولكن حقيقته لا تناسبني، فما أبحث عنه يا حور إله آخر واحد صنع

نفسه بنفسه كما قال إخناتون، ولكني لا أرمز له بقرص الشمس، ولا بأي مظهر من مظاهر الحياة، إنه خلف كل المظاهر، وليس ظاهرًا، إنه المحرك الذي لا يتحرك، إنه الذي يحرك الشمس والقمر والكواكب والطيور، ويجعل النبات يشق الأرض فرحًا بالماء والنور والهواء، وهو الذي يقود قلبك للحب، وهو الأقوى والأرق من النسيم، والأكثر عطفًا من الأم الحنون على وليدها.. وأنا في بحث دائم عن هذا الإله، وأعتقد أن توجه الإنسان إلى الخير في الحياة هو الأهم.

فقلت: يا معلمي وصديقي أنت الأفضل في مصر، وإنني أبايعك لتكون فرعونا، لتعيد مصر إلى طريق العقل.

فضحك وقال: تكفيني حديقتي، ولو كان الأمر بيدي لأمرت بدفن جسدي فيها بعد موتي بدون طقوس التحنيط، لتنبت منه الأزهار والنباتات لأفيد الحياة حيًا وميتا.

قلت: أرجو أن تباركني يا صديقي، فأنا مسافر إلى بلاد هندوس للمرة الثانية، فلم أعد أحتمل الحياة في مصر، فقد اختنقت روحي بعد موت ميريت، فأشار سوتي بيده إشارة دائرية: إنها حولك، قلت: ولكنها لا تستحق أن تذهب إلى شط أوزير هكذا سريعًا، تلك الجميلة ميريت التي كانت تحمل صفات إيزيس، ذويت سيدة قلبي أمام عيني يا صديقي، تلك التي كانت تضيء كجوهرة، لم يتوصل الأطباء لعلاج لها، فهم الآن ليسوا

سوى مجموعة من الجزارين الجهلاء، إنهم يزحفون خلف المال كالوحوش خلف الفرائس، ثم يتصنعون الهدوء والحكمة، وما الطبيب بانوب إلا مثال لهم..

قال سوتي: الموت لغز بلا حل، ولكن أخبرني، ماذا فعل بانوب معك؟

قلت: عندما كنت أعمل معلمًا في بيت الحياة المجاور لمعبد الإله حور مرضت مرضًا شديدًا، ورقدت عشرة أيام بسبب ألم عنيف في ظهري، وعندما استطعت القيام، وذهبت إلى بانوب متساندًا ومريضًا، ليعطيني بردية صغيرة في حجم الكف مختومة بختمه، تفيد أنني انقطعت عن العمل بعذر مقبول.. وبعد أن كشف على ظهري متشككًا لم يوافق على ختم البردية –ذلك الحقير– بينما ختم بردية عنخ آمون –أنت تعرفه– الذي لم يكن مريضًا، وذلك لأن زوجة عنخ الجميلة بانفرتي هي التي دخلت عليه ضاحكة تتمايل مشرقة مثل الإلهة حتحور، فختم لها بردية بإجازة لمدة أسبوعين سابقين، وقال لها مبتسمًا: أي خدمة في أي وقت يا عسل النحل.. ضحك سوتي كثيرًا..

فقلت: ليس هذا ما فعله معي فقط، بل عندما أصابني التهاب في الزور، ولم أعد أستطيع الكلام، وصار صوتي خشنا مبحوحًا، فذهبت إليه مرة أخرى، فهو الوحيد الذي يعتمد الإجازات المرضية للموظفين في الوظائف الحكومية، وبانوب الحقير يعرف

أنني معلم، وعملي قائم على الكلام والشرح، ورغم ذلك لم يعطني إجازة، وقال يستخف دمه الثقيل: إنت كنت بتغني طول الليل؟ فلم أرد عليه.. ذلك القذر الفاجر العربيد ابن القحبة، الخائن لماعت، وقد انتظرته مع باقي المرضى حتى توسطت الشمس السماء، هل يأتي موظف في حكومة الفرعون ظهرًا، ويعمل ساعة في اليوم؟ هكذا الحال، وكلما سألنا عنه متأوهين من التعب.. يقول مساعده: إنه يجرى جراحة خطيرة.

خرجت من عنده وأنا أشتم الفاجرة التي أنجبته، واضطررت أن أذهب إلى بيت الحياة، وحلقي يتمزق، ولو ذهبت إلى بيته ورشوته لأعطاني إجازة شهرًا، ولكني لا أفعل ذلك، وقد ظللت ثلاثة أيام أشرح للأولاد عن طريق ملقن، فكنت ألف بردية وأجعلها واسعة من الأمام، وضيقة من الخلف، وأتكلم فيها على قدر استطاعتي، فيستمع تلميذ إلى صوتي، وينقله إلى باقي الأولاد، هذا ما فعله بي الخائن بانوب، وأنا أشك أنه مصري، إن الحمار يفهم في الطب أكثر منه، والدواء الذي يبيعه فاسد، وأعشابه متعفنة، فالرقابة معدومة أو مرتشية كما تعرف.

فقال سوتي: كان الأطباء القدماء يجرون أخطر العمليات بنجاح وأمانة.

فقلت: انهارت القيم يا صديقي، ورغم أن قيمة المعلم مثلا هي القيمة التي يجب الحفاظ عليها، ولكن المسئولين الذين يعملون على تخريب المجتمع، هؤلاء المسئولون أرادوا أن يطوروا بيوت الحياة، فأفسدوها عندما امتحنوا المعلمين في عموم مصر امتحانًا حقيرًا خادعًا بلا تدريب وبلا موضوع، ونصبوا لهم فخًا حاقدًا، وقد سمح المعلمون في بيوت الحياة لأنفسهم بالغش الجماعي – رغم أن الامتحان عقد تحت رعاية الكهنة ـ فأصبح المعلم فاشلا وغشاشًا، وتم مكافأة الجميع على هذا الغش بزيادة المرتب.. توافق المجتمع كله على الغش، ولا أعرف كيف يمنع المعلم تلميذا من الغش وهو غشاش أصيل!

فقال سوتي: لقد باعوا قلوبهم من أجل المال، فلم تحدث هذه الجريمة المنظمة منذ أن خلق الله مصر، فقد كان للمعلم قيمة عظيمة في المجتمع، وهذه هي بيوت الحياة في أسوأ حال، إنها تكاد تكون خالية والأولاد في الشوارع عرضة للتلوث.

قلت: إنهم يحيدون دائمًا عن الحق، ولا يعرفون ماعت إلا اسما، فالطريق الوحيد للتطوير هو التدريب الدائم المستمر.

قال سوتي: يجب محاكمة من فكر في هذه المهزلة التي ستواصل تخريب المستقبل.

قلت: كما ترى فالحياة في مصر وصلت إلى الحضيض، وأنا أحتاج إلى أفق متسع، فالتعصب الآن لم يحدث في تاريخ

كيميت، وها هو الكاهن يويا خنسو ابن القحبة، تربية الحواري القذرة، كلما قال مفكر أو شاعر رأيًا لا يعجبه شكاه في المحاكم الفاسدة، فالقضاة الآن فاسدون، فهم قضاة الفرعون لا قضاة الشعب، فهم من كهنة آمون، وزاد فسادهم عندما أدخل بسماتك الثاني ابن بيكاو رجال الشرطة، وجعلهم قضاة، وكما تعرف يا صديقي فرجال الشرطة هم أعداء الشعب، وهكذا أصبح القضاة الذين حكموا بالعدل طوال تاريخ مصر هم أعداء الشعب، فهذا النظام القضائي فاسد ومتعفن، وله قلب أسود حالك، والمرتشون فيه أكثر من الصالحين، ولكن حكومة الفرعون تتستر على فسادهم، وتغفر لهم لأنهم رجالها، فلو طلبت الحكومة من أحدهم الحكم على الإله آمون نفسه لحكموا عليه بالسجن، أو بالعمل في محاجر الفرعون.

لم أعد أحتمل كل هذا الفساد، ولا تلك الجماعات الحقيرة، التي تؤله الفرعون ويقبلون مواضع قدميه على الأرض، ويتحكمون في مصر وثرواتها، وآمون حتب نموذج جيد لهؤلاء الذين جعلوا العقائد في خدمة بطونهم ونزواتهم، إنهم عار على الحياة، فلو استطاعوا أن يجعلوا أنفسهم عاهرات للفرعون لأسعدهم ذلك.

أحتاج يا صديقي هواء البحر، سأترك مصر عامًا أو عامين أو أكثر، فقال: باركك الخالق أينما حللت، ووقف بجوارك الحظ الطيب، فلا معنى للحياة، ولا لأي جهد بدون الحظ، ورعتك جميع آلهة الخير، إن كان في يدها شيء. وضحك، فضحكت وشكرته.

في الصباح تعانقنا، وودعت أسرته، وعدت إلى أتريب متوازنا، ومتوافقًا، عدت على قارب الطير العاشق المزدحم، والذي يتوقف في جميع الموانئ، ومعي صندوق من التحف والأساور، والأقراط الممتازة، وعشرون عباءة من أجمل ما صنع الصناع، من أجل رحلة هندوس، وبدأت في الطريق أشم هواء البحر المالح الواسع، وأسمع هدير الأمواج، وأحسست الريح تملأ الأشرعة، وتعبث في شعري.

غربة التسامح

لم يعد التسامح هو الأصل.. التسامح الذي استمر ألوف السنوات أصبح شيئا نادرًا، فالاختلافات الآن عنيفة أحيانًا، وقاتلة أحيانًا أخرى، فمصر المتسامحة تأكل نفسها الآن عن طريق التشتت، والحقد الديني، فكهنة آمون مثلا لا يتساهلون أبدًا مع أتباع إخناتون الذين يعبدون آتون رع.. هم قلة، ولكنهم متمسكون بعقيدتهم، ويحجون كل عام إلى مدينة أخيتاتون من أنحاء مصر، فيترصد لهم كهنة آمون، ويرسلون أتباعهم، ليقطعوا عليهم الطريق، فيضربونهم، وينهبون ما معهم، ويقتلونهم أحيانًا، ثم يصرخون في مواعظهم بالتسامح، وأن مصر لجميع الأديان والعقائد، ويهتفون هتافهم الخالد: مصر وطن جميع الآلهة.. لكن الكل يعرف أن دماء القتلى في رقاب هؤلاء الشواذ المنحرفين.

ولا أنسى في العام الماضي حين حضرت مناقشة طويلة ومرهقة في بيت الخمر الذي يجتمع فيه المتعلمون، وموظفو الحكومة.. كانت المناقشة بين آمون حتب الفقيه المتشدد في عبادة الإله آمون، وآخت رع فقيه عقيدة آتون رع، وعندما احتد النقاش طارت الخمر من الرءوس، وانقسم الناس إلى فريقين.

كان آمون حتب يتكلم ساخرًا مهددًا، وحين يجد موقفه ضعيفا يصرخ ويردح كالنساء، ويعوي كالذئاب، وآخت رع يفند أقواله بمنطق متماسك، ولغة راقية..

قال آخت رع : إن جميع مظاهر الحياة أساسها الإله الخالد آتون الذي يحيط نوره جميع الأشياء، وتتخلل أشعته البحار.. إن أشعته وحده تمتد بكفوف الخير إلى العالم، إنه يتلألأ بالنور الغامر الشفاف.. إنه الإله الواحد الأحد الذي يكمن خلف قوة قرص الشمس، فلا يمكن أن يقام له تماثيل، وكما قال إخناتون الذي وصل إلى درجة النشوة والهوس بإلهه:

إن الآلهة القديمة تتساقط واحدًا بعد الآخر، وتنكسر أحجارها التي يتكونون منها، إلا الإله الذي خلق نفسه بنفسه، الواحد آتون، والذي يمكن الرمز له بقرص الشمس الذي تمتد أشعته بالخير وعلامة عنخ، وها هي معابده مفتوحة بلا سقف، وأضاف في هدوء قاتل: ألا ترى يا آمون حتب تلك التماثيل المكسورة لآمون حتى لو كانت من الأحجار الكريمة، أو الخشب الثمين، فمصيرها إلى الدمار، كيف لا يحافظ آمون على جسده؟

كادت عينا آمون حتب أن تخرجا من محجريهما لهذه الجرأة المتهورة من آخت رع، وانفجر صارخًا: اللعنة على أتباع آتون رع، هؤلاء الذين يحاولون من قرون هدم طريقتنا السليمة.. هذا الإخناتون، مجرم أخيتاتون، وابن الظلام، ذلك

الفاسق الفاجر، ابن الفاسق الفاجر، الكافر بآمون المعظم الخالق؟ وملك الآلهة.. إخناتون ذلك الشاذ المنحرف، أنسيت علاقته مع سمنخ كارع؟ ألم يتزوج ابنته مثل أبيه أمنحتب الثالث، ذلك المهووس بالجنس، والذي ورث الإمبراطورية العظيمة القوية، فجعل همه أن يفسح المجال لآتون رع، وجعل همه الأكبر استيراد الجميلات من أنحاء الإمبراطورية؟ ولم يكتف بالزواج من الأجنبيات، وإنما طلب ثلاثمائة وسبع عشرة غادة من حسان نهرينا، وإذا لم تصدق ذلك فاذهب إلى قاعة التاريخ في مدينة الأهرام، ثم أرسل أمنحتب الثالث إلى أمير جيزو يطلب أربعين من أجمل العذارى، وأن يكنّ مشرقات الوجوه، ولا يكون بأية واحدة ما يشين جمالها، كما طلب من أحد أمراء سوريا عشرين عذراء، وطلب من أمير أورشليم إحدى وعشرين فتاة من الأبكار، كما طلب من الأمراء بناتهم ليستمتع بهن.

هذا هو أبو إخناتون الذي أهلكه الإفراط في الجنس، فماذا يكون حال ابنه؟ إنها عائلة شريرة، كل منها يجري خلف عضوه "قالها بالعامية الفاحشة".

تداخلت بعض الأصوات لتفض هذا الحوار الذي لا يبشر بخير، ولكن آخت رع رفع يده وقال: أنت تعرف يا آمون حتب، وأنا أعرف، والجميع يعرفون أن هذا الكلام كذب صفيق لفقه كهنة آمون للمقدس إخناتون ابن النور، العائش على الصدق والحقيقة والعدالة، ابن الإله رع الذي أرسله لإنقاذ شعب مصر

من ألوف الآلهة المزيفة، وهو الذي أرجع الموجودات إلى إله واحد أحد صنع نفسه بنفسه.

هاج بيت الحياة، وأراد الناس معركة، وحاولت أن أهدئ الطرفين، وقبلت رأس آمون حتب، ذلك الفقيه المصنوع من القذارة، إنه عبوة خراء مكسوة بالجلد المتغضن، محلوق الرأس.

أخذت آخت رع من ذراعه، وأخرجته من المكان، وحذرته فقد كان صديقي في يومٍ ما، وتباعدنا بلا سبب واضح، أو لاختلاف الطباع.

في اليوم الثالث لذلك الحوار اكتشف الأطفال – وهم يلعبون – جثة آخت رع مقطوعة الرأس، ومكتوب على صدرها: اللعنة على أتباع آتون، وعلى إخناتون، مجرم أخيتانون، وبعد أيام تم طرد سوتاوي بن آخت رع من بيت الحياة رغم أنه كان يتدرب ليكون كاهنا في معبد الإله حور، وتم شطب اسمه من بردية الأسماء في مدخل بيت الحياة، لذلك تركت العمل في هذه المدرسة، وتركت المهنة التي أحبها.

* * *

بعد أن قتل آمون حتب الفقيه آخت رع، وطرد ابنه، لم يكفه ذلك، فقد اعتبر أن آخت رع هو رأس الفتنة ضد عبادة الإله آمون، واستمر يحاصر زوجة القتيل نفرحات الجميلة الغضيضة، وأم سوتاوي وتاتا.

كما دبر دسيسة لسوتاوي، واتهمه بسب الإله حور، ووضعه في السجن، وجعل اللصوص من الكهنة يفسدون حقل القمح، وحقل الخضروات لنفرحات، فذهبت إليه، وركعت أمامه، ليفك أسر ابنها، فمد يده وتحسس ثديها، فانكمشت مذعورة، ولكنه ظل يراودها حتى تزوجها، وأخرج سوتاوي، ونصبه كاهنا في معبد آمون.

كان آمون حتب بدينا مثل العجل أبيس رمز أتريب، وله أملاك واسعة في شمال أتريب قرب الميناء النهري.. كان يعيش في طيبة، ويزور أتريب كل عام، فيقيم احتفالات لأثرياء المنطقة، ويدعو للإله آمون في معبده الجميل شمال أتريب، وكان يركب عربته الفخمة التي يجرها حصانان، وهو من القلائل الذين يركبون عربات فاخرة في أتريب.

* * *

لم أقتنع يومًا بكاهن بدين يقبل على الطعام كالحيوان الشره، ويأكل ما لذ وطاب من القرابين اليومية المخصصة للمعبد، وكنت أظن دائمًا أن أي رجل دين لا بد أن يكون متقشفا وبلا كرش، فالبدانة عار على رجل الدين، وتدل على بهيميته؛ وفي إحدى المرات نظر لي آمون حتب نظرة عميقة عندما قلت له: أيها الكاهن المبجل، لماذا يقبل كثير من رجال الدين في هذا العصر بشغف على الطعام، حتى أصبحوا كتلا من اللحم تتدحرج على الأرض؟ ألا يجب أن توزع القرابين على الفقراء بعد أن يأكل الإله آمون؟ فقال وهو يتنفس بصعوبة: نحن نفعل ذلك، ولكن القرابين حق أصيل لكهنة المعبد، وهذا رزق من الإله، فهم الذين يقرأون الأناشيد والتراتيل، وهذه أمور دينية لا يفهمها أمثالك، وأمثال المرحوم العزيز آخت رع.

صعود آمون حتب

على زورق الريح، أسرع أنواع الزوارق في مصر بشراعيه الأبيضين، ومجاذيفه العشرة على كل جانب، ركب آمون حتب الزورق الطويل الخفيف من ميناء أتريب صباحًا متجهًا إلى طيبة، عندما وصله البريد السريع يطلب حضوره فورًا إلى المعبد العظيم مقر عبادة الإله آمون، فقطع إجازته السنوية، وأخذ معه حارسه الشخصي، الجريكي القوي، والذي لا يثق في أحد غيره، وبينهما لغز كبير، وأخذ معه بعض الصناديق.. قال بعض الخبثاء: إنها مملوءة بالذهب..

ونحن نعرف جميعًا أن طموحاته بلا حدود، وأنه يعمل خادمًا للأمراء، ويقوم لهم بالمهام القذرة، ويقدم هدايا ثمينة للفرعون من الأراضي الخصبة الموقوفة للإله آمون في أتريب.. وأخذ معه زوجته الجديدة تاتا الصغيرة الساحرة ابنة آخت رع بعدما ماتت أمها في ظروف غامضة، وقيل إن زوجته السابقة قتلتها، وسرت إشاعة أنه قتلها، ولكنه لم يتأخر في الاهتمام بجنازتها كما يليق بفقيه كبير، وجهز لها مقبرة عظيمة في تل النبلاء خلال أيام التحنيط الأربعين، وأجّر الندابات، فلم يستطع أحد الكلام، وكتم كل شكاك ما في قلبه،

أما سوتاوي ابن آخت رع، فقد حطمته الحياة، ولم تحتمل نفسه الرقيقة ضربات المصائب، وترك الكهانة، وترك أتريب كلها، وذهب إلى أخيتاتون المدينة الأطلال، ليعيش هناك.

* * *

منذ ثلاثة أشهر وجدت لوحة في عرض ذراعين، وارتفاع ثلاثة أذرع منقوشة بشكل جميل، وموضوعة في ميدان المعبد، والناس يلتفون حولها مبتهجين لابن مدينتهم – رغم كل شيء – أرسل آمون حتب نص اللوحة بالبريد السريع، كما يلي: يسر الكاهن والفقيه المحب لأهله أن يزف إليهم في أتريب أن جلالة الفرعون المعظم ابن الإله آمون قد تفضل على آمون حتب بي عنخ، وعينه الكاهن الأكبر للإله آمون رع ملك الآلهة.

لم أستطع أن أكمل القراءة، ومضيت وقد تأكدت أنه لم يعد لي مكان في مصر في السنوات القادمة.. لا بد من التغيير.

تكاد مصر الآن أن تكون في قبضة الكاهن الأكبر، ثروات بلا حصر، فالإله آمون هو المعبود الأساسي في مصر كلها، وله معابد في كل مكان.. وها هي المعابد الأجمل في العالم، توجد في طيبة، فطيبة هي مدينة المعابد العظيمة.

وضع آمون حتب يده المدنسة على مدينة آمون المقدسة، وهي من أهم المدن في مصر، بعد مدينة الأهرام وقد وصفتها،

ومنف ومعبودها الإله الصانع بتاح، ومدينة أون مقر عبادة الإله رع، وتشتهر بمعابدها العظيمة، وتماثيلها الهائلة، ومسلاتها الأرشق والأجمل، ومدينة إلفنتين مقر عبادة الإله القديم آتون في الجنوب، ومدينة أخيتاتون التي بناها إخناتون، وهي الآن شبه أطلال، وتنبثق الروعة من بقاياها، وهي تناسب سوتاوي ابن آخت رع، ربما يجد روحه هناك.

ومدينة طيبة التي استولى على مقاديرها آمون حتب بي عنخ الداهية الذي كان يقول: لست أقل من ابن حابو. إنه يقارن الخرز الرديء بالجواهر الأصلية.. آمون حتب غير الجدير بأن يكون عاملا في معبد صغير في قرية مجهولة، أصبح الكاهن الأكبر للإله آمون.. وله الآن أن ينتقم ممن يشاء، وله أن يبارك قمبيز الذي احتل مصر، كما سيحدث فيما بعد، ويقبله في عبادة الإله آمون، ويعطيه لقب ابن الإله.

انتقام سوتاوي

قبل أن أسافر بأيام وفي شدة انهماكي في الاستعداد للرحلة العظيمة إلى بلاد هندوس، وأنا أتابع ترتيب البضائع وربطها بإحكام في جسم السفينة حتى لا تنفرط، وتصبح عائقًا إذا سقطت من ضربات الأمواج، أو إذا فاجأتنا عاصفة، وهذه الأوقات، أوقات الاستعداد للرحلة هي من أمتع أوقاتي، ويعمل عقلي فيها بسعادة قبل أن نفرد شراعًا، وننطلق من قناة بسماتك.. أتخفف من حياتي، وأصبح طيرًا منطلقا.. أنا ابن بحر حقيقي، تشتاق روحي للمدى المتسع، والأفق اللا نهائي.

جلست أستريح وأشرب قليلا من خمر الشعير، فرأيت النحات سوبك الماهر في حرفته، والذي قضى سنوات في ورشة جماعة رع شبه السرية في مدينة أخيتاتون، يحاولون الحياة في أطلال المدينة التي كانت أبهج وأجمل المدن يومًا، وما زال السحر يشع منها، هدم كهنة آمون معابدها، ولكنها ما زالت تتنفس، وما زالت معقلا للإله الواحد آتون رع.

حياني سوبك، فدعوته ليشرب قدحًا من الخمر، فجلس بجواري على رصيف الميناء، والشمس تميل إلى الغروب. قال سوبك بعد قليل من التردد: لقد قررنا التخلص من الكاهن

الأكبر آمون حتب، فانتهت، وقلت: من الذي قرر ذلك؟ قال: سوتاوي وأنا.. وأكمل: بعد أن وصل سوتاوي بأسابيع إلى أخيتاتون أصبح مشهورًا، ليس لأنه ابن الفقيه المدقق آخت رع القتيل، بل لأنه كان يحفظ كل أناشيد المعظم إخناتون، ويقرأها بصوت عذب، ويحسن تفسيرها، إنه ملتهب بعاطفة فياضة تجاه الإله آتون رع، وتجاه ابن النور ورسول الضياء إخناتون.. وفي اجتماع الكهنة قبل أسبوعين عرض خطته لقتل آمون حتب، وقال: ليس لأنه قتل أبي، ودمر أسرتي فقط، ولكن من أجل مصر كلها، ليكون عبرة لباقي الكهنة، هؤلاء الذين يقبلون على الحياة كشر الدواب.. لن يهنأ بما فعل.

نظر سوبك في عيني وقال: ما رأيك في هذا الأمر؟ فسوتاوي أرسلني لأخذ مباركتك، فأنت كنت صديقا لأبيه عندما كان طفلا، وأنت من وقف بجوار عائلته عندما اضطهدهم آمون حتب. قلت: ولكني لا أتبع آتون رع. قال: ولكنك تحفظ أناشيد إخناتون. قلت: نعم ولكني في هذه الفترة لا أتبع أحدًا.. أنا باحث عن الحقيقة المراوغة.. فقال: نحن نثق بك دائمًا، فقلت: أتمنى أن نتخلص من الشر، وآمون حتب شر خالص، وستصبح الحياة أجمل قليلا إذا لم يكن فيها، لذلك أنا أبارك قتله من أجل مصر، ومن أجل ما فعله بآخت رع وأسرته، ولكن عليكما الحذر البالغ، حتى لا تسيل بحيرة من الدماء.

"أسجل الآن تفاصيل مقتل آمون حتب بعد سنوات من عودتي من بلاد هندوس"...

تركني سوبك وسافر إلى مدينة أخيتاتون، ونقل إلى سوتاوي مباركتي.. وسافرا إلى طيبة المدينة العظيمة التي يحتكر آمون حتب معابدها الفخمة وأوقافها، وقرابينها.

فرحت تاتا بأخيها وصديقه.. كانت تعيش مثل ملكة، فهي زوجة الكاهن الأكبر، ولكن الحزن كان يضرب قلبها بلا رحمة، ويملأ عينيها الرائعتين، وقالت لأخيها: إن الكاهن الأكبر لم يعد يهتم بها كالسابق، ولكنها كتمت الحقيقة.

* * *

رحب آمون حتب بسوتاوي فاتحا ذراعيه قائلا: أخيرًا عاد الضال إلى بيته. فابتسم سوتاوي الذي كان شوكة في جنب الكاهن الذي أراد السيطرة على أولاد آخت رع، وصمم على جعل ابنه كاهنا في معبد آمون، وكان لا يقدّر ذلك الشاعر الشاب حق قدره.. أراد أن يتقلب آخت رع في قبره ألمًا.. وها هو يجد سوتاوي مهيئا لذلك.. فأخذ يراوده عن عقيدته قائلا: عدة أشهر تدرس فيها تعاليم الإله آمون، وأصول الكهانة، وسوف أجعلك كاتبًا للمعبد، أو تتناول القرابين من قاعة الظهور إلى قدس الأقداس، فليس مسموحًا لأحد غيري أن يدخلها حيث بيت الإله آمون العظيم، ولا تظن أن الأمر مثل أمر إله أبيك.. تماسك سوتاوي

وقال: أيها الكاهن الأكبر، لا بد أن أفهم لماذا يوجد الثالوث والتاسوع؟ ونحن نعرف أن على رأس مصر فرعون واحد، وللمعبد الكبير كاهن أكبر واحد، وللسفينة قائد واحد، وفي البيت أب واحد للأولاد. أليس هذا ما يجب أن يكون؟

تضايق آمون حتب، ولم يُظهر ذلك وتنحنح: هذا بحث دقيق في أصول العقيدة سنناقشه غدًا، والآن عليكما أن تستريحا أنت وسوبك، لتشاهدا المدينة، فأنتم في طيبة مدينة الإله آمون العظيم، وسوف تغمركما عظمته وروعة معابده، وبهجة أعياده.

خرج آمون حتب في الصباح ومعه حراسه، واتجه إلى المعبد العظيم القريب، وتطهر في البحيرة المقدسة، وارتدى رداء جلد النمر الخاص بالكاهن الأكبر فقط، أما بقية الكهنة فيلبسون ملابس الكتان البيضاء الجميلة، استقبل القرابين وقدمها للإله، وبعد أن أكل الإله، أخرج القربان، فأكل الكاهن الأكبر وبقية الكهنة، وكل العاملين بالمعبد ما لذ وطاب.

بدأ آمون حتب يمارس حياته العادية، فأدخل الحارس الجريكي إليه فتاة ليباركها الكاهن المقدس، ويحل مشكلتها، فهي تعتقد أن المقدس وحده هو القادر على جعلها تنجب، فلم تحمل بعد عامين من الزواج، ولم تشعر بالحياة في داخلها.

كان الكاهن يقرأ النصوص المقدسة في حجرته، فركعت الفتاة أمامه، فربت على رأسها، وقال: لقد أمرني الإله آمون بحل مشكلتك أيتها الجميلة، وسوف تحملين وتلدين ابنًا سيكون له شأن عظيم، وأنا مكلف بالنوم معك لمدة أسبوع متواصل، وليست هذه رغبتي أبدًا، إنها أوامر الإله، ستأتين في مثل هذا الوقت، ولو انقطعت يومًا سنبدأ من جديد. وأخذها بين ذراعيه، مثل فاكهة طازجة، فأطاعت المرأة الشابة سعيدة، وشعرت أنها ستحمل فرعونا في بطنها من الكاهن المقدس.

* * *

قضى سوتاوي وسوبك يومهما يتجولان ويفكران في خطة القتل، وتبين لهما أن قتل الكاهن الأكبر ليس أمرًا هينا، فلن يفلتا أبدًا بفعلتهما، ويمكن أن يمزقهما الكهنة إلى ألف قطعة قبل الوصول إلى محاكمة عادلة، وبأية حجة يدافعان في المحكمة؟ اتفقا على دراسة المكان جيدًا، والتمسك بالصبر، وأن يظهرا تبجيلا للإله آمون.

في المساء اجتمعوا وتحدثوا في أمور شتى، وعن الحال في أتريب، وعن أعداء مصر المتربصين، واتجه الحديث الاتجاه المنتظر، فقال الكاهن وهو مستريح في مقعده الجميل، شاعرًا بأهميته: ما رأيك في طيبة يا سوتاوي؟ ألم تشعرك بعظمة الإله الذي يرعى الجميع؟ رد سوتاوي: بلى إنها من أهم المدن، وهي

نتاج قرون من الفن المعماري الذي يخدم العقيدة، وهي تليق بعظمة الإله، وكل إله يحتاج مدينة عظيمة تخدمه، ولكن الآلهة أكثر من الحصر، إنها مئات، بل في كل قرية إله، وبعض البشر ألّه نفسه، مما فتّت القوة الدافعة للحياة، وتتعصب كل مجموعة لمعبودها، وأنا الآن أحاول أن أطمئن إلى طريق الإله آمون ملك الآلهة، الذي ملأت تماثيله قلبي بشعور قوي.

ابتسم آمون حتب، وظن أنه أمام لعبة طريفة مع هذين الساذجين، وقال: إنها فكرة جميلة، فكرة الإله الواحد، ولكنها كفر صريح بالعقيدة المصرية، وهذه الفكرة رفضها الشعب؛ لأنها لا تناسبه، ولو تم فرضها بالقوة، كما فعل مجرم أخيتاتون منذ سبعة قرون، فهي قادرة على تدمير الحياة الاجتماعية والدينية التي استمرت ألوف السنين.. ولا تنس أننا جميعًا نعبد الإله الواحد آتوم المتجلي، فقال سوبك: ولكن ذلك مرتبط بالثالوث: الإله أتوم، والإله بتاح الصانع، والإله آمون ملك الألهة، فضحك الكاهن وقال: لو فكرتما جيدًا لوجدتما الإجابة في حديثكما، فالإله المتجلي تدرج في صورة الإله الخالق الصانع، إلى الإله الظاهر الأقرب إلى البشر آمون، وخنوم، إنهم صور من الإله العظيم، كما أننا نؤمن برع الذي خلق نفسه بنفسه، وخلق شو وتفنوت، فتزاوجا وأنجبا نوت وجِب، فتزاوجا وأنجبا إيزيس وأوزير وست ونفتيس، هذا هو التاسوع الذي يحكم العالم، وليس كما قال المجرم إخناتون.

وهناك الأسرار المقدسة المحجوبة عن الجميع إلا خواص الخواص من الكهنة الكبار، وبالممارسة والصلوات والاجتهاد تتفتح أمامك بركات العقيدة، وتدخل في حضرة هذه المنظومة الإلهية، وتصبح كل أعمالك مباركة حتى ولو لم يفهمها الناس؛ فالإله آمون يقود خطواتك ويرشدك، وقد وزع الإله قدراته وجماله في الحياة بداية من أسرته المقدسة أي ثالوثه الخاص، إلى جميع الكائنات، وهو لا يغضب من عبادة الآلهة الأخرى بشرط عبادته وتوقيره أولا ، فهو الذي خلق نفسه بنفسه، وليس من حق أحد أن يطعن في هذا النظام السماوي، وعندما تدرسان التعاليم ستفهمان ما غاب عنكما، وستتغير حياتكما تمامًا، فاجتهدا، فلكما مكان محجوز في المعبد العظيم، أعظم معبد في الدنيا.

* * *

انغمس سوتاوي وسبك ظاهريًا في الدراسة ليصبحا كاهنين، وانقسم وقتهما بين بيت الحياة، وأداء شعائر المعبد، وكانا يعيشان في بيت آمون حتب في حجرتين بجانب المدخل الرئيسي، وبجوار حجرة الجريكي الغامض حافظ أسرار سيده، والقواد الذي يأتي له بالمصريات الجميلات، والغلمان الجريك، كما يتزعم عصابة مأجورة تنفذ أوامر الكاهن الأكبر.

* * *

بـدأت تتكشـف حيـاة الكـاهن شـيئًا فشـيئا تحـت عيـون سوتاوي وسوبك المدققة، وصدمهما فساده وهو أقوى رجل بعد الفرعون، بينما تاتا الرقيقة تذبل يومًا بعد يوم مثل وردة مهملة ومطعونـة بشـوكة غـدر في قلبهـا، ففـارق السـن كبير بينهـا وبـين الكاهن، وفـارق المشـاعر أكبر، ولكنهـا تحتمـل الحيـاة مـن أجـل طفليها آمون ومايا، وقد أنعشها قليلا حضور أخيها وصديقه.

راقـب سـوتاوي الجريكي وهـو يبيـع القـرابين والهـدايا عـن طريق عصابته لصالح الكاهن، وهي أموال هائلة تتدفق يوميًا إلى خزائنه، وكذلك أموال أوقاف المعبد العظيم الواسعة من أجل الصـرف على المعبـد، وإقامـة الأعيـاد، وشـراء الأخشـاب الثمينـة لسـفينة الإلـه، والبنـاء والترميم، ولكنـه اسـتفاد منهـا في رشـوة الفرعون، والدفع لغلمان الجريكي.

احترق قلب سـوتاوي الـذي وهـب روحـه وعينيه للنـور، وهـو يتلمس حقيقة زوج أخته والذي قتل والديه.. تلك الحقيقة التي صدمت قلبه، وجعلته يشك في كل شيء، وحتى في الإله آتون رع، وفتحـت الحقيقـة قلبـه على فكـرة أن الآلهـة يتركـون البشـر في عـذابهم بـلا رعايـة، فكـم عذبتـه آلام النـاس وعجـزهم! وتسـاءل لماذا؟

وها هو يرى الكاهن المقدس في عيون الشعب يخوض في الفساد بلا خوف، ورأى بعينيه الجميلات يدخلن خلسة إلى حجرته، ورأى كل أسبوع غلامًا جريكيًا جميلا يدخل إليه بحجة هدايته إلى طريق الإله آمون، وعندما تنصت مرة وقف شعر رأسه هلعًا.. إن الكاهن لا يؤمن بأية كلمة مما يقولها، ذلك البارع في الإيهام ما هو إلا وحش جنسي يمارس الجنس المزدوج، وما الدين إلا طريق ليسهل له هوسه الجنسي، وعرف لماذا ذوت تاتا الجميلة؛ فهي تعيش مع مسخ.

* * *

في وقت القيلولة في ظلال المعبد تتردد أصوات العصافير بين تيجان الأعمدة في البهو الخارجي، والقاعة الثانية.. أشار الجريكي لامرأة شابة تشبه الإلهة إيزيس جمالا، فسارت في اتجاه الإشارة، ودخلت حجرة قدس الأقداس واختفت في الداخل.

بعد قليل نادى حارس الباب الخارجي الجريكي، فخرج الجريكي، وبعد قليل تسلل سوتاوي ودفع الباب، فوجد آمون حتب يلهث فوق المرأة، وفخذاها يحيطان به، ومؤخرته مكشوفة تهتز بجوار بيت الإله آمون، لم يدر سوتاوي ما يفعل من هول صدمته، ثم أفاق وأمسك رأس الكاهن وضربها في بيت الإله الخشبي المكسو بالذهب، ضربة أفقدته الوعي، فقامت المرأة مفزوعة بجسدها الغض الذي يضيء مترجرجًا تحت نور

المصباح الزيتي الموضوع فوق بيت الإله، فالحجرة المقدسة بلا منافذ، وعند قيامها خطفت رداءها وغطت جسمها، وقد أخرستها المفاجأة وشلتها، فأخذت تحدق فيما يجري أمامها، فهي تدرك –رغم أنها ليست متفقهة في الدين– مقدار الجريمة التي شاركت فيها، ورأت سوتاوي يفك سكينا لامعًا مربوطا على وسطه تحت ملابسه، ويقيد يدي آمون حتب، ويربط حبلا رفيعًا حول رأسه يمر بفمه حتى لا يتكلم أو يصرخ، ثم جعله يفيق بقليل من زيت المصباح.. فتح الكاهن عينيه متألما ونظر إلى المرأة منكسرًا، وقد فقد النطق، فقال سوتاوي: أفق أيها النجس، يا قاتل أبي وأمي..

لقد أرسلني آتون رع الإله الواحد الذي صنع نفسه بنفسه، لكي أخلص الحياة منك، ألم تتورع يا زوج أختي المسكينة أن تمارس الجنس في قدس الأقداس تحت عيني إلهك؟ هل هذا هو الدين الذي تدعو الناس إليه، وقتلت أبي من أجله؟ تأكد أنني سأرسلك إلى شط أنوبيس وأوزير، ولن تطيعك مئات التماثيل المجيبة، ولن تعمل بدلا عنك في الشاطئ الغربي.. وسوف تحمل عارك إلى الأبد، وتأكلك الوحوش.. وما ذنب هذه الفاجرة لتجرها معك وتورطها في جريمتك؟ هل أجبرتها على ذلك؟ ولكنها ستدفع الثمن أيضًا لأنها ارتضت لنفسها أن تنام مع حقير مثلك.

انظر.. إن الإله آمون لا يدافع عنك؛ لأنك عار على مصر.. كان آمون حتب ينظر في رعب، ويلهث وهو يرى سوتاوي يمسك المرأة من شعرها.. وقفت المرأة، فسقط ثوبها من يديها، وظلت في عريها الفاضح الخطير، فعريها في هذا المكان أشد مما لو كانت تسير عارية في الطريق العام، شدها وقربها من آمون حتب وهي تتوسل بلا صوت، بهمهمة غير مفهومة، وطعنها في رقبتها، فتدفق دمها على وجه آمون حتب اللاهث..

– أنت قطعت رقبة أبي، وهذا هو القصاص.. وهوى عليه، وقطع رقبته، وهو يخور بصوت كئيب، ثم وضع رأسه فوق بيت الإله، ووضع جسده في المقدمة، فسد الفتحة.. وحجب التمثال.. غمرت الدماء سوتاوي، فخلع ملابسه، ومسح يديه ولبس ملابس المراة، وتسلل في الهدوء الغامر وقت الغروب، ولم يجد الجريكي، ووجد الحارس مشغولا، فسار في الظلام، وخرج من منطقة المعبد إلى النيل، فغسل الدماء عن يديه جيدًا، وعن وجهه، وانتظر قليلا يفكر، ثم اتجه إلى سوبك، فقابله في الطريق، ولكن سوبك لم يعرفه في البداية، وحين تأكد من صوته، شعر أنه عجل بالخطة، ولكنه لم يتمالك نفسه من الضحك قائلا: إنك أجمل فتاة رأيتها.. فضحك سوتاوي أيضًا وأخبره بما حدث.. أسرع سوبك إلى البيت، وأتى بملابس أخرى، وكل ما معه من نقود، فقال سوتاوي: اسمعني جيدًا: منذ متى خرجت من عملك؟

- منذ قليل.

- عليك أن تذهب الآن فورًا إلى بيت الخمر، وتقضي ليلتك في شرب الخمر مع الآخرين، فأنت بعيد عن الشبهة، ولم يرك أحد تدخل المعبد اليوم.. أما أنا فسوف أهرب وأتجه شمالا، ربما مع الرحلات التجارية خارج مصر، اسمع يا صديقي، عليك أن تتزوج أختي، وترعاها هي وولديها، هذا سيريحني أينما كنت.

قال سوبك: لماذا لا تذهب إلى أخيتاتون، وتطلق لحيتك، وتعمل معلمًا؟

قال سوتاوي: سأفكر في أشياء كثيرة أثناء هروبي، فسوف تنقلب مصر في الصباح.

فقال سوبك: أنت أديت مهمة جليلة للحياة، وسوف نرى ما يحدث.

تعانق الصديقان، ومضى سوبك منتشيًا، مرتجف القلب من الإثارة إلى بيت الخمر، وظل يشرب حتى سقط من أثر الخمر في منتصف الليل، فسنده زميله في ورشة العمل، وأدخله حجرته بمساعدة حارس وخادم، فقال حارس آخر: كل يوم يأتي هكذا، هذا النحات المتشرد.

* * *

عاد الجريكي مسرعًا يفكر أنه سيأخذ المرأة غدًا إلى بيته كما فعل الأسبوع الماضي، وظن أنها قد غادرت بعد انتهاء الكاهن منها، كما ظن أن الكاهن سيوبخه، فقد يراها بعض الكهنة الخبثاء خارجة من القاعة الوسطى.. اقترب من قدس الأقداس، ووجد الأمر هادئًا، فأخذ نفسًا عميقا، وجلس على الأرض، وبعد ساعة أصابه القلق.. هل ذهب الكاهن إلى البيت؟ فالمكان صامت.. تهيأ للخروج إلى بيت الكاهن وهو يرتب في ذهنه عذره القوي الذي جعله يترك سيده، صفقة ممتازة: جريكي جميل يحتاج عملا في أوقاف الإله آمون.. وقبل أن يخرج تسلل إلى قدس الأقداس، وفتح الباب، فوجد المصباح فوق مقصورة الإله أمام رأس الكاهن يضيء عينيه المفزوعتين إلى الأبد، وخلف الرأس جثة المرأة والمكان مغمور بالدماء.. فتجمد مكانه لحظة ولكنه تماسك، وعمل ذهنه بسرعة البرق، وفكر في الأموال التي معه، والتي لم يسلمها للكاهن، ورتب في ذهنه السرقات الممكنة، وصناديق الذهب السرية، وخرج فسأله الحارس: ألن يذهب الكاهن إلى بيته الليلة؟ - إنه يتعبد هذه الليلة حتى الصباح.

* * *

أسرع الجريكي إلى بي عنخ آمون نائب الكاهن الأكبر في إقامة الطقوس، ذلك المتأمل الصامت، وطرق بابه، وقال له في حزن: الكاهن الأكبر تم قتله في قدس الأقداس.

لم يُظهر بي عنخ انفعالا، وأرسل الجريكي إلى تسعة من كبار الكهنة الموثوق بهم، وعندما اجتمعوا دخلوا جميعًا إلى المعبد في صمت وترقب، وأشعلوا المصابيح الخزفية، وأمروا الحارس بعدم إدخال أحد، وعبروا أبهاء الأعمدة، إلى القاعة الثانية، إلى قاعة الظهور، وتقدموا في الطريق الطويل إلى قدس الأقداس، تتردد أصوات أقدامهم، وشعروا بإزعاج حفيف أثوابهم في تلك اللحظات، ولا يعرف أحد، ولا حتى الآلهة فيما كانوا يفكرون في الصمت المشحون الذي يلفهم.

فتح الجريكي الباب، وأضاءت المصابيح المكان، وأعطت ظلالا متداخلة على الحوائط، تأملوا المنظر صامتين، وقال بي عنخ: كنت أتوقع كارثة، ولكن ليس بهذه البشاعة، وفي هذا المكان الذي تهفو قلوب الملايين إليه، ويتشوق الكهان في أنحاء مصر ليروا لمحة من بيت الإله.. أيها الكهنة الأفاضل، يا من تعبدون الإله آمون.. ما رأيناه الآن لم يحدث، وأمامنا الليلة عمل كبير، فشمروا أثوابكم.. نحتاج المياه لنغسل هذه الدماء، وعلينا أن نبحث في هدوء عن القاتل حتى لا يتكلم.. سنعلن الخبر صباحًا: لقد مات الكاهن الأكبر بسبب ضعف قلبه، ولن يعرف الفرعون ما حدث، سنقيم جنازة تليق بمكانة منصبه، وسنبدأ من الغد بحفر مقبرة في الأربعين يومًا الخاصة بالتحنيط، وسوف يتم تحنيطه بما يليق بالكاهن الأكبر.

قال أحد الكهنة: هل نحنطه في سبعين يومًا كما كان يحدث قديما لنؤكد على قداسته؟ قال بي عنخ: إنه لا يستحق ذلك.

تنفس الجريكي بارتياح، فلا أحد يعرف مكان المقبرة السرية لسيده الراحل، ويمكن أن يبيعها لأحد الأمراء بمبلغ كبير جدًا.

استمرت اجتماعات الكهنة أسابيع متواصلة، وأخذوا في وضع نظام جديد، ورشحوا النائب بي عنخ ليتولى منصب الكاهن الأكبر، وذهبوا إلى الفرعون بهدية ثمينة عبارة عن تمثال من الذهب للفرعون قدمها بي عنخ، وعادوا بالختم الساحر للفرعون على بردية منمقة بتعيين بي عنخ آمون كاهنا أكبر على أن يتولى منصبه رسميًا بعد دفن الكاهن الأكبر السابق.

* * *

انتابت الكهنة موجة من النشاط الإداري، وبحثوا في السجلات والبرديات، وأعادوا تقدير الأوقاف الخاصة بالمعابد وبيوت الحياة، وعينوا كاهنا جديدًا لمكتبة المعبد العظيمة.

بدأت تتكشف يومًا بعد يوم أماكن الخلل الخطيرة التي بدأها آمون حتب حتى قبل أن يتولى منصبه بسنوات، واكتشفوا في أسى قاتل سرقة سبع برديات من أهم أسرار المعبد، ولم يكونوا يعرفون أن أهم ما في المكتبة تم نسخه عن طريق ألاعيب الجريكي، وأنها عبرت بحر الشمال إلى أثينا.

أفق مفتوح

من قناة بسماتك خرجنا في بشنس، وبداية القناة في مدينتي، حت إري إيب، عاصمة الإقليم الأوسط، والتي صارت بالديموطيقية أتريب، وهي التي أنجبت ابنها العظيم أمنحتب بن حابو المهندس العبقري في عهد الفرعون أمنحتب الثالث والد إخناتون.

وقد أنشأ ابن حابو أجمل المعابد والتماثيل في أنحاء مصر، وما زال المعبد الذي أقامه لعبادة الإله حور في أتريب قائمًا ورائعًا، وأمامه المسلتان الرشيقتان، تنعكس الشمس على قمتيهما، رغم أن ذهب القمتين قد سرق، والأتقياء قبل سفري كانوا يجمعون النقود لإعادة كسوة القمتين بالذهب المبهج.

* * *

طول قاربنا ستون ذراعًا.. إنه قلعة عائمة، رسمت على أشرعته عين حور، وعلى جانبيه تفاصيل رحلتنا السابقة، وانشغلت في ذلك طوال برمودة ونصف بشنس.. ونحن نسافر في أسطول من السفن المهيأة للدفاع عن نفسها، وسفينتي مثال جيد لذلك، فهي سفينة تجارية ثقافية حربية، عليها تسعة من البحارة الأصدقاء، ومعنا سيوف حادة، وسهام حارقة، تصل إلى

أكثر من مئة ذراع، باختصار لا نهاب أحدًا، ولا حتى القراصنة، ولا الجيوش الحربية؛ لأننا نملك أحدث سفينة في العالم؛ لأن سفينتنا مزودة بسبعة أشرعة نصطاد بها الرياح والنسيم ومعنا قاربان للنجاة.

وحمولتنا من التحف المصرية التي لا مثيل لها من العقود والأساور، وأدوات الزينة المصنوعة من الذهب، والفضة، والعاج الذي نستورده من بلاد بونت، والأحجار الكريمة، والبردي، والقماش المصري الفاخر المشهور، والذي يخجل الحرير من نعومته وقوته، والعطور التي ألهمها الإله نفرتوم سيد العطور للعشابين المصريين.

* * *

تتجه قناة بسماتك إلى الشرق من أتريب خارجة من النيل عن طريق بوابات ضخمة، وتسير موازية لفرع آخر يبدأ من مدينة أون، وبينما تتجه قناة بسماتك إلى البحر الشمالي تتجه قناة أون إلى البحر الشرقي، بحر القلزم الذي ظل ملكًا شخصيًا لمصر ألوف السنين، وفي منتصف قناة بسماتك فرع يصل بين القناتين.

عندما تخرج من المدن فالطبيعة المصرية بلسم للروح.. عندما تتأمل حقول القمح الذهبية، والأشجار والطيور والحيوانات.. الطبيعة بهجة الشعراء.

وصلنا إلى بحر القلزم واتجهنا جنوبًا إلى بلاد بونت.. وانطلقت روحي في هذا الأفق المفتوح بين أصوات الأمواج والرياح.. الزمن له معنى آخر هنا، وفي الغروب تتفرق أشعة الشمس إلى ملايين القطع الذهبية، ثم تتحول ببطء إلى ذهب سائل.

وللبحارة خبرة طويلة، إنهم أصدقائي، ومثلي غرباء، ورافضون مثلي، ومثاليون مثلي، ولكل منهم مأساة يحتملها صابرًا كمصري أصيل، وهم كما يلي:

- مينا، الشاعر المتأمل، والذي يستقبل مظاهر الطبيعة بحب، ويحترم جميع الكائنات، ولا يؤمن بالخرافات، ويكاد يحفظ تراث الشعر، والمناقشة معه ثرية وممتعة.

- وحتب، الجندي السابق، والمصارع القوي، وصياد السمك الخبير عن طريق شبكة جر خلف السفينة.

- وعا عنخ، النجار المتفنن في حرفته، وصانع التحف الخشبية، والذي يقضي وقت فراغه في رسم الأمواج والسحب.

- وباحور، الذي يعشق الزراعة، ويزرع الخضروات على سطح السفينة في مساحة ذراعين في ذراعين في تربة بارتفاع إصبع، وهكذا أكلنا أشهى خضراوات طازجة في عرض البحر.

- وبشاي، أبرع غواص في مصر.

- وباخوم، الطباخ العبقري، والعارف بأساسيات الطب، والماهر في إطلاق السهام.

- ونخت، الثرثار المرح صاحب النكات الجنسية الصارخة، وأسرع من يرتقي سارية السفينة، ليشاهد الحياة من أعلى.

- وشورع، الصامت والمُجِد في عمله والذي يحمل قصة ثأر غامضة.

- وموسى، عالم الفلك الذي يعرف النجوم كما يعرف كف يده، ويعرف الاتجاه نهارًا عن طريق الشمس، وحجر المغناطيس.

هؤلاء هم أصدقائي وبحارتي، وأما سجل السفينة فمن نصيبي، أسجل فيه أحداث اليوم والتاريخ حتى لا نتوه.

اتجهنا بموازاة الشاطئ في ريح مواتية، دفعتنا مثل طيور مهاجرة، وملأتنا المغامرة بإثارة متدفقة، ومشاعر جديدة.. كنا نبتهج بكل ما نراه، وكلٌ منا يحاول تناسي مأساته، واستشفاف آمال مبهمة في الأفق البعيد.

سيطر على روحي هدوء وسلام في هذا الجو الأبدي من الحياة.. الأفق، والسحاب، والشاطئ البعيد، ولكن كان ينتابني أحيانا هوس وشغف بلا حل، وشوق جارف إلى ميريت المقدسة.. والمبهجة مثل زهرة عباد الشمس.

❊ ❊ ❊

لم نهبط إلى الشاطئ حتى لاحت بلاد بونت ذات الجمال الخرافي، والثروات المتنوعة.. أرسينا قاربنا في الميناء المتواضع، وهبطنا إلى حيث مكان الزعيم، التف الناس حولنا سعداء، ورأيت الهوس في عيون أصدقائي إلى النساء الساحرات اللائي أحطن بهم.

لنا في بلاد بونت معارف وصداقات مع ملوكها وتجارها الذين يحبون مصر.. استضافنا زعيم القبيلة وأكرمنا، وتسللت إلى كل بحار سوداء دافئة بطعم البهار والعسل.

أهدينا الزعيم قلادة من الأحجار الكريمة والذهب، ومرآة اندهش عندما نظر فيها، وتزودنا بالماء والطعام، واتفقنا مع الزعيم أن يجهز لنا حين عودتنا اللبان والزيوت والأبنوس والعاج، والذهب الخام، وبعض القرود، والطيور.. وودعناه ولحقنا الرياح الغربية في البحر العظيم متجهين إلى شط هندوس الشرقي، وأسلمنا قيادنا إلى موسى عالم الفلك.

كنت أحيا بنصف عقل، ونصف عقلي الآخر مع ميريت.. لم يمر يوم، أو نصف يوم، أو ربع يوم دون أن أتذكرها.

تتنـازع العـالم الآن قـوى جديـدة متصـارعة، الآسـيويون والجريك، كل الوحوش مترصدة، بعدما أوشكت شمس مصر أن تنطفئ، ونحن في أسوأ أحوالنا، في صراع بين الممالك المتعددة.. لقد نضجت مصر للخراب والاحتلال، أصابتنا غيبوبة لا حل لها، بعد انهيار جميع القوانين.

شروخ

لكل حضارة مشكلاتها ومصائبها، وقد رأيت في هندوس ما يشيب له أي مصري، ولا ينام مستريحًا طوال عمره، رأيت صدمة حقيقية لطقس أساسي من طقوس حياتنا، بل غاية حياة المصري، وهو الحفاظ على الجسد بعد الموت عن طريق التحنيط، رغم أن هذا الأمر أصبح تقليديًا بلا روح، فما زال لشاطئ أوزير رهبة، وتم تسخير الحياة المصرية لأجل الحياة الأخرى التي يشك معظم الشعب بها الآن، فلم يستيقظ أحد من العالم الآخر، لذلك انتشرت أغاني النسيان والإقبال المفرط على الحياة، خصوصًا أغنية القيثارة التي انتشرت انتشار النار في لفائف البردي، وهذه الأغنية –رغم تفاؤلها– تعبر عن القلق الرهيب الذي يعصر العقول، وكأن الحياة خدعة.. وكل ذلك يصب لصالح كهنة آمون الذين ظلوا يستنزفون روح الشعب حتى خنقوها، فأصبح عقل المتأملين والمصلحين يأكل نفسه.. وهذه هي الأغنية التي تكسر القلب، وتدل على الضياع وانعدام اليقين، واليأس حتى أصبحت تلك الأغنية نشيدًا قوميًا لشعب يبحث عن النسيان:

الموت أمر محتوم،

ولا نعرف شيئًا عما بعد الموت

ما زالت الأجيال تسير،

ودخل غيرها إلى عالم الخلود

منذ أزمنة موغلة في القدم

لا أحد يعود من وراء القبر

فيخبرنا بما يريح قلوبنا.

ليست حياة الإنسان

إلا جزءًا من دورة مستمرة

والشمس التي تولد في الصباح،

ترتاح ليلا في الجبل الغربي

تلد النساء،

وتتنفس جميع المخلوقات الحية الهواء،

ثم تذهب إلى القبر بعد ذلك.

لا حياة يمكن إطالتها في مصر

وليست فترة الحياة إلا بقدر الحلم

لذلك عش يومًا بهيجًا

تمتع بأجمل العطور،

وضع أكاليل من أزهار اللوتس

على ذراعي حبيبتك وجيدها

واستمتع بالغناء والموسيقا

اطرح الهموم بعيدًا عنك

ولا تفكر إلا في السرور

حتى يأتي وقتك

للذهاب إلى أرض السكون

❊ ❊ ❊

انتشرت أمثال تلك القصائد بين الشعب، وأصبحت روح النهم والجنون إلى الحياة، هي شغل الناس، كما قال الشاعر في لغة يمكن أن نقبلها في قلب الحضارة القوية، ولكنها هي اللغة السائدة الآن:

العاهرة

لن أقبل بعد إهاناتها

تتركني على الباب ساعات

ثم تخرج متباطئة، ولا تلقي التحية

إلهي، لماذا تغيرت؟

إنها ترفض النوم معي

العاهرة.

❊ ❊ ❊

هذه بعض شروخ حضارتنا، أما الذي يفزع أي مصري، فهو طقس إحراق الميت في بلاد هندوس، وهذا أعنف ما يسمعه المصري، فما بالك وقد رأيت ذلك رأي العين! كما رأيت بقايا أشلاء الجثث عندما تلقى في نهر الغانج المقدس عندهم، بل إن البعض يلقون الجثث كاملة في هذا النهر، ومع ذلك يستحمون فيه ويشربون منه، ونحن أيضًا نقدس حابي ولكن ليس بهذه الطريقة.

الحزن هو الحزن، والتفرقة بين الأغنياء والفقراء واحدة، فتحنيط الأغنياء يعد فنا قائمًا بذاته، وإنك لترى مومياء الغني، فتغبط صاحبها لروعتها، ودقة اللفائف، وتظن أنها قادرة على النهوض من رقدتها لو استدعاها أوزير.. أما الفقير، فيدفن بأقل الإمكانات، ودائمًا ما يخدعهم المحنطون، فتتلف المومياء بعد أسابيع، أما الفقراء جدًا، فيغمضون عيونهم، ويتساهلون في كل هذه الأمور الغامضة لهم، وقد سمعت بعضهم يشخرون للآلهة، ويسبون آمون، وخنوم، وهم يتمايلون من أثر الخمر.

أما في بلاد هندوس فيحرقون الأغنياء بخشب ثمين معطر، ويغطونه بالحرير، والفقراء يكفيهم أردأ أنواع الخشب، ويوجد فرق أساسي بين الحضارتين، فالحياة في مصر لها قيمة، ولا يمكن قتل أحد بسهولة، فالقانون لا يسمح بذلك.

ولكن في هندوس، يتم حرق زوجة الميت معه بالقوة، أو بالترغيب، ولهم تراث طويل في طرق الحرق، وتأكل بعض النساء نباتا مخدرًا في طقوس معروفة لهم، ثم تقفز الواحدة منهن في النار في حفرة معدة لذلك، ويلقي أهلها عليها الزيوت والأخشاب لتحترق بسرعة، وإذا لم تفعل ذلك ستعيش محتقرة، ويتشاءم منها الناس، ويتم قتلها في النهاية.

وإذا كان الميت غنيًا والسيدة لها مكانتها يتم التضحية بإحدى الخادمات قهرًا، وإذا تطوعت فإنهم يوفرون لها أشهى الأطعمة، كما تمر على الخيام، مدة ثلاثة أيام قبل الحرق، فيمارس جميع الرجال الجنس معها، وهكذا تستمتع استمتاعًا مركزًا، ثم يضعونها في خيمة تحيطها أصوات الطبول، ويخنقونها بحبل يشده الرجال، أو يمزقونها بالسيوف.

* * *

أسرار الجريكي

عاش الجريكي في مصر منذ كان في العشرين من عمره، وخدم في الجيش المصري خمس سنوات، وأصبح يعبد الإله آمون، وعمل في أعمال متنوعة مثل كثير من أهل بلده، حتى استقر حارسًا وخادمًا لآمون حتب، ولكنه كان يخفي عبادته لزوس رب الآلهة في ديانته، وديانا، وأتنا، وفينوس، وكان يبدو حارسًا جيدًا، ويتكلم مثل أي مصري بلغة سليمة، ويعرف الجميع أنه لا يقرأ الهيروغليفية، ولا حتى لغة بلده، ولم يعرف أحد أنه كان عالمًا أريبًا مدققا، لا تفوته شاردة ولا واردة في حياة المصريين، والمعلومات العامة عن المصريين ليست خافية عن الرحالة والدارسين والجنود المرتزقة، فمصر قلب العالم الذي استكان إلى الراحة، ولكن غاية الجريكي معرفة الأسرار المخفية عن العالم، ونقلها إلى علماء بلده المتعطشين للمعرفة.

جاب ذلك الداهية مصر شمالا وجنوبًا في الحملات العسكرية وفي التجارة، ولا يمكن أبدًا أن تخمن أنه ليس مصريًا؛ فهو يعرف اللهجات المختلفة لجميع المدن.

أخذ الجريكي يستعير البرديات المهمة باسم الكاهن الأكبر، وينقلها بخط دقيق جدًا بالهيراطيقية مستخدمًا رموز الاختصار،

فكان ينقل البردية الطويلة إلى حجم صغير، شبرين في شبر، وبهذه الطريقة نقل أسرار مكتبة المعبد العظيم، بينما الكهنة مشغولون بمشاكلهم، ومؤامراتهم، ومراقبة أعمال بعضهم البعض، والبحث عن المناصب، وعن كل ما يدر مالاً سهلا عن طريق القرابين وغيرها.

كان للجريكي صلات واسعة بالجريكيين العاملين في مدينة الأهرام المقدسة، وفي مدينة منف، وكل شهر يجمعون ما نقلوه من برديات، ويرتبون كيفية نقله، إنهم مجموعة من النمل النشيط جدًا، يعملون لصالح منظمة من المفكرين الذين يسعون إلى وضع بلادهم تحت الشمس.

* * *

في الإرباك الكبير الذي حدث بعد قتل الكاهن الأكبر، وفي تلك الليلة العصيبة، تم تكليف الجريكي بالتخلص من جثة المرأة، فقام بالمهمة خير قيام، فخرج من المعبد، وأتى بعدة أكياس كبيرة من التيل الرديء، وتسلل إلى المكتبة، ولف البرديات السبع الأهم بإحكام وغطاها بغطاء التيل، ووضعها بجوار جثة المرأة ولفهما جيدًا، ورفع الحمل الثمين وأخرجه من المعبد برعاية أحد الكهان الذي أخرجه من البوابة الرئيسية.. وعندما عاد خلع ملابسه، وغسل الدماء، ووضع رأس الكاهن الأكبر في مكانه ولفه مع الجسد، ووضعه خارج قدس الأقداس،

وجعل المكان أفضل مما سبق، وقبل إشراق الشمس حمل الجثة بمساعدة ثلاثة من الكهنة الذين ساروا خلفه، وذهبوا إلى بيت التحنيط الخاص بكبار القوم، وطلبوا من رئيس المحنطين أن يعمل على هذه الجثة بنفسه مع كاهن من المعبد في مكان منعزل طول الأربعين يومًا.

* * *

اجتمع الجريكي مع عصابته، ومعظمهم من المصريين القادرين على تحطيم تمثال الإله آمون مقابل قبضة من الذهب، ورتب لتأمين هذا الكنز للوصول إلى أثينا، فالأموال لا تنقصهم.

بعد أسبوع اكتشف كاهن المكتبة فراغًا بين اللفائف، فبدأ البحث في السجلات، وكانت صدمته كبيرة، فبحث، ودقق، واكتشف سرقة نسخة أصلية من سبع لفائف بردي فيها لفائف عن أسرار الآلهة، ولفائف مختصر تاريخ حضارة كيميت، ولفائف أسرار بناء هرم خنوم خوفو، وصورة السماء وأسرار النجوم، وأسرار تحنيط الملوك، وأسرار العمليات الجراحية، والطريق إلى الهرم الروحي.

حل الوجوم بالكهنة عندما علموا بذلك، وكان لا بد من استعادة هذه الأسرار من مكتبة منف إن لم توجد في طيبة.

في هذا الوقت كانت البرديات تتمايل في صندوق محكم فوق سفينة تجارية في طريقها إلى بلاد الجريك، وبجواره صندوق آخر من أسرار مكتبة منف يحتوي لفائف ثمينة وأبحاثا دقيقة ومصورة عن أسرار الطيران بأشرعة قماشية، وأخرى عن أسرار الغوص تحت الماء للدراسة والصيد وجمع الكنوز لمسافة تصل إلى عشرين ذراعًا والمكوث لساعة من الزمن، وبحث عن صناعة المخدرات الطبية، وبحث عن صناعة الخمور.

* * *

شعر الجريكي بالرضا عما أنجزه مما جعله يظهر تعصبه للإله آمون، وعندما استغنت تاتا الجميلة عن خدماته، أخذ يتحسس اتجاه الريح، ويبحث عن نقاط ضعف الكاهن الأكبر الجديد، الذي يخوض حربًا شاملة لتثبيت سطوته، وسوف يجد الجريكي منفذًا إليه أو إلى أتباعه، مدفوعًا بنهم لا يرتوي، والخروم في كل أنحاء مصر مثل المصفاة.

الجميلة التي أشرقت

استيقظت ولم يتركني طيف ميريت المحبوبة طول الليل، وسيطر الوهم على روحي حين صحوت، وكدت أن أنادي عليها، ثم انتبهت إلى الواقع، وإلى لون البحر، وإلى اهتزاز السفينة الهادئ في مرفأ مومباي الهندي، وإلى ضحكات البحارة يستعدون للنزول إلى مومباي للتجارة خاصة وقد تجمع التجار في انتظار بضاعتنا.

طلبت من أصدقائي أن يتركوني اليوم في السفينة مع موسى عالم الفلك، فأنا أحتاج الانفراد بنفسي اليوم؛ لأن الأرواح تحيط بي، والكا الخاصة بميريت كانت معي طول الليل.. وقفت على حافة السفينة أتأمل الصباح الجديد، ومباني مومباي الجميلة، وصفاء المياه، ثم جلست جلسة الكاتب الشهيرة تحت الشمس الحنون، وكتبت قصيدة في ميريت المحبوبة،

وهذا نصها:

أيتها الجميلة التي أشرقت على حياتي يومًا

يا ذات النضارة السماوية التي ما زالت تلهب قلبي

يا شقيقة إيزيس في الحسن والبهاء

أيتها الإلهة التي تجسدت في صورة البشر،

وجذبتني جذبًا، فدرت حولها بلا إرادة

يا أجمل المصريات، يا حتحور الخالدة

لقد قدمت قلبي إليك قربانا

* * *

كانت روعتك تتقدمك متدفقة،

وتلتفت حولك مثل ألف ربيع

كان النيل يجري إلى أتريب

ليرى وجهك، ويغسل جسدك المضيء،

فيزداد حلاوة،

والآن أضحى ماء النيل ماءً عاديًا

والعالم أضحى شكلا بلا روح

أيتها الجميلة التي أشرقت يومًا على روحي

تتبعها الفراشات والسعادة

أنا الذي أقمت هيكلا فخمًا لعبادتك

في قلب بستاني

فأنا الكاهن الأول، ومشعل البخور،

وقارئ تعاويذك، ومقدم القرابين،

وحافظ نصوصك الشعرية،

فكل ما تلفظت به شفتاك المزهرتان

هو فخر للمصريين وللعالم

* * *

انظري..

ها أنا وحيد بدونك،

وقلبي يتألم كأنه انشطر نصفين

وهل يطير طائر بجناح واحد؟

انظري إلى حور هنا على شاطئ هندوس

يكتب، ويحلم بعينيك الهدباوين

ما الذي أتى به إلى هنا؟

- إنه يهرب،

فكيف يحتمل فساد الحياة بغير ضحكتك؟

بدونك كل خطوة بلا هدف،

وكل سعي خائب، والطعام بلا طعم،

والنور كالظلام، ورغم ذلك يجب أن أعيش

وكأن قلبي لم تطعنه حربة غادرة.

فى الطريق

منذ سنوات كنت في رحلتي الأولى إلى هندوس، وتعلمت لغتهم، وسمعت عن المستنير، فملأ الشوق قلبي، وتتبعت خطاه وهو ينشر مذهبه في الحياة، ويدعو شعبه إلى الطريق الأوسط، وشعرت أن تاريخًا مغايرًا يتشكل..

تركت أصدقائي يتاجرون في مومباي، واتجهت شرقا، أتعمق في حضارة هندوس، ولم أشعر بالغربة كثيرًا كما شعرت في بلاد أخرى..

سألت في معابد هندوس، وتتبعت أنسام تعاليمه وحكمته؛ لأن المستنير كأنه يتكلم بلسان مصري، وينطق عن عقل مصري، وعندما تأملت ما سمعته عرفت أن تعاليم الخير في العالم واحدة..

حرصت في هذه الرحلة أن أقابله، لم أترك بلدًا سمعت أنه زاره إلا وسعيت إليه، وواصلت الاتجاه شرقا متأملا في حياة شعب هندوس، وراصدًا الاختلافات والتشابهات مع الحياة المصرية، متشممًا في الهواء رائحة المستنير، وسمعت قصته كما يلي:

كان الشاب جوتاما يعيش في رفاهية في قصور أبيه الحاكم الذي حاول أن يمنع عنه مشكلات الحياة وبشاعتها، فأحاطه بالخادمات الجميلات، وزوجه زواجًا سعيدًا، ولكن أشواق جوتاما كانت كامنة في أعماقه، وهو غارق في النعمة والترف، وفي يوم شاهد عجز الشيخوخة، وعذاب المرض، ولغز الموت، وتساءل دهشًا عن هذه المظاهر، وعرف أن هذا مصيره ومصير الجميع.. فالمحن لا تترك أحدًا.. واضطربت روحه لذلك اضطرابا شديدًا، وعندما رأى ناسكًا حليق الشعر يرتدي ثوبًا برتقاليًا، أوقف جوتاما عربته، وقال للناسك: من أنت أيها المعلم؟

قال الناسك: إنني شخص مضى قدُمًا..

فسأله: ما معنى هذا أيها المعلم؟

فقال الناسك: إنه يعني يا مولاي كون المرء ضليعًا في الحياة الدينية، ضليعًا في المسالمة، وفي الأعمال الطيبة، والسلوك الجدير بالتقدير، ضليعًا في اللا أذى، وفي الشفقة على كل الكائنات.

عندما سمع جوتاما ذلك، أمر سائق عربته بالعودة إلى قصره قائلا: أما أنا فسأبقى هنا، أقص شعري، وأرتدي الثوب البرتقالي، وسأمضي قدُمًا.

* * *

دهشت من هذه الروح التي تتخذ قرارًا هائلا بسهولة، وأنا في بداية هذه البرديات، تمنيت أن أكون فقيرًا متسولا، أخلع عبء الحياة، عندما ضاقت روحي، وأمد يدي عندما أجوع، وأقول: أحببني، أحببني بحق آمون، أو التجئ خادمًا في أحد المعابد النائية في الصحراء.

* * *

اعتقدت أن حياة الناسك الذي تكلم مع جوتاما، كانت مقدّرة تمامًا، وأنه عاش حياته كلها من أجل هدف واحد، أن يقابل الشاب جوتاما، الأمير الثري على عربته الفخمة، ويقول جملته الخالدة: إنني شخص مضى قدُمًا.

تلك الجملة التي لها مفعول السحر القوي جدًا، مفعول القوة المطلقة، والتي يمكن أن تنقل جبلا من مكانه، وتغير تاريخًا وقلوبًا، وتحول مسار الأرواح.. عاش الناسك خمسين عامًا ليقولها في بساطة آسرة.. إنني شخص مضى قدمًا. ربما سمعها الألوف قبل ذلك، ولكنها عند من يقدرها أثمن ما في الحياة.. إنها قلب الحياة المشرق.

عندما سمعتها أول مرة، وأنا أتقصى أخبار بوذا، ظللت صامتا هادئًا بينما قلبي يواصل اتساعه، حتى احتوى السماء، وملأت الفرحة أنحائي، وحل الهدوء على حياتي، وغفرت للحياة القذرة قذارتها، حتى أنني غفرت للأطباء الوحوش الذين قتلوا

ميريت، وقلت: هكذا الحياة. ماذا نفعل؟ وبدأت "البا" النورانية لميريت المحبوبة تزورني في صفاء تام، وشعرت أنني لم أفقدها، فهي في قلبي، فأنا أيضًا شخص مضى قدمًا.

* * *

تخيلت بالأمس حوارًا مختلفًا بين الشاب جوتاما والناسك، ماذا لو كان الناسك ناسكا عربيدًا، يتخفى في الثوب الأصفر لأمر ما، وبداخله شرور لا يستطيع التغلب عليها؟ ماذا لو كان قاتلا مأجورًا؟ أو كان وحشًا جنسيًا؟ أو جاسوسًا لأمير على أمير آخر لا علاقة له بتهذيب النفس، وأجاب على جوتاما إجابة صادمة؟ مثل إجابة بعض المصريين الآن: لو كنت أعرف مكان الإله لقدمت له القرابين، أو قال مثل القول الفاحش الشائع: اذهب لآمون لكي ينفعك يا ابن الفاسقة.

ماذا لو كان الناسك مثل كهنة آمون رع الذين يأكلون جيدًا، ويغتصبون المصريات في زوايا المعابد، وفي الحجرات السرية، وهم يكتبون لهن التعاويذ على قصاصات البردي والجلود، ويقول الكاهن لفريسته: انظري هذه تعويذة أصلية من جلد الإله سوبك تمنع الأذى؟

ماذا لو كان الناسك مثل الكاهن أوكاو آب رع؟ ذلك الخبيث زعيم عصابة الدجالين، بنظراته التي يمكن أن تقتل الصقر حور المقدس في السماء، وبكرشه المملوء خبثا، وبصدغيه المنتفخين

باللحم النجس.. فلتمزق الإلهة سخمت قلبه، فهو قادر على اغتصاب الحيوانات المقدسة.

ماذا لو أجاب الناسك – لو كان وحشًا متخفيا، هيأته الشياطين لسد طريق جوتاما – ماذا تريد أيها الشاب الغني؟ إنك ترتدي ثيابًا رائعة، وتركب عربة فاخرة يجرها حصان، يمكن أن يباع بثروة في سوق الخيول.. إنك تأكل جيدا فجسدك قوي.. ألا تريد غانية جميلة؟ أستطيع أن أوفرها لك بقليل من النقود.. هل أقرأ لك نشيدًا من أناشيد الأوبانيشاد وتعطيني هذا السوار الذهبي؟ ألا تحتاج عاملا في حديقتك؟ يمكنني أن أقوم بتدليك جسدك لتكون نشيطا مع زوجتك، وإذا أردت أن تقتل أحدًا فأنا خادمك.

* * *

أظن أن جوتاما كان سيعود صامتا إلى قصره، ويعتكف قليلا، ويمارس حياته إلى حين، ولكن الأقدار لها أسرارها، وقد استهدفت أن يقف ذلك الناسك الذي رعته جيدًا في طريق جوتاما، في لحظة محددة – ذلك الناسك لا غيره – بل إن الأقدار هي التي أيقظتهما صباحًا، وقادت خطاهما إلى بؤرة النور والحكمة، ليتغير وجه الحياة في الشرق البعيد، ولتهبط الحكمة على أرض هندوس، وتتجه شرقا، وليدخل سِد هارتا قلبي.

إنني شخص مضى قدمًا.. كانت البشارة بترك حياة الرفاهية التي عاشها حتى سن التاسعة والعشرين، وخطا الخطوة الأولى في الطريق، وجرب ضبط النفس والتأمل والجوع والظمأ حتى تساقط شعره من الضعف – وهو المرفه – كان يتناول عدة حبوب من القمح في اليوم، وبضع قطرات من المياه، وينام على الأرض، ويصغي إلى الطبيعة، ويسمع قلب الحياة وأنفاسها.. لقد وصل بضبط النفس والصوم إلى الحد الأقصى الذي يمكن أن يصله إنسان.

هذا التقشف العنيف الذي مارسه ست سنوات، وأشرف على الموت بسبب الصوم الذي لم يوصله إلى ما يريد، وعرف أن كلا الطريقين خاطئ، الرفاهية والتقشف، وأن السعادة في الطريق الأوسط.

* * *

هذه بعض القصص التي سمعتها، وكلما اتجهت شرقا كانت تتضح الصورة أكثر، وأنا في طريقي إلى حديقة الغزلان في بنارس التي جلس تحت إحدى أشجارها، وهبط النور على قلبه، وأضاءت روحه.. لكني كنت مخدوعًا؛ لأنني ظننت أنه يتجول في محيط بنارس، فروحه كانت ترنو إلى أرض هندوس كلها، فاتجه إلى الوسط والشرق مع أتباعه، يمارسون الطريق عمليًا، ويسيرون بالخير والرحمة للناس والكائنات، إنهم الضليعون في

اللا أذى والمحبة يقودهم المستنير، وكأنهم يسيرون في طريق الشاعر الحكيم وفخر مصر أمنموبي العظيم.

* * *

في ظهيرة مباركة على حافة غابة تغمرها الشمس، جلست تحت أشجارها، أتنصت لأصوات الطيور بجوار بعض النساك يتحلقون حول ناسك من الذين استمعوا إلى موعظته الأولى في حديقة الغزلان، فاقتربت منهم، واستحلفته بحياة المستنير أن يدلني، فابتهج، وتتبعت كلماته السنسكريتية حرفا حرفًا، فقد أصبحت ضليعًا في هذه اللغة المبهجة الساحرة مثل شخص مضى قدما إلى غاياته:

توصل جوتاما سد هارتا إلى الحقائق الأربع النبيلة وهي: المعاناة.. للمعاناة أسباب، يمكن القضاء على المعاناة بالتخلص من أسبابها، السبيل للقضاء على المعاناة هو الطريق الأوسط ذو الثماني شعب.

وتعاليم الطريق الأوسط تفضي إلى البصيرة، وإلى الحكمة، وإلى الهدوء، والمعرفة، والاستنارة الكاملة والتي هي الغاية.

والحقيقة النبيلة الرابعة هي الطريق الأوسط: سلامة الرأي، وسلامة النية، وسلامة القول، وسلامة العقل، وسلامة العيش، وسلامة الجهد، وسلامة ما نعنى به، وسلامة التركيز.

استمعت إلى شرح مفصل، ملأ قلبي فرحة بحقائق الحياة، واعتقدت أنني سرت في هذا الطريق كثيرا في حياتي، إنه طريقي، وطريق الحكماء المصريين، وطريق ميريت المقدسة، وطريق سوتي، وطريق أصدقائي البحارة.. اختلفت معالم الطرق قليلا، ولكن الغاية واحدة.. الاحتماء بالنور والحب الشامل.

قلت للناسك الذي علمني: دلني على مكان المستنير، أود أن أقابله، أن أراه، فقال: بي شوق أن أصحبك إليه، ولكنه أرسلني لأبشر بتعاليمه كما أرسل آخرين ساعيًا إلى إنقاذ الناس من الضباب والتخبط.. اتبع حدسك، وبصيرتك، واتبع النور في قلبك، واتجه شرقا، ستقابله.

سوتاوي في أخيتاتون

لا الإله آمون منع قتل كاهنه الأكبر في قدس الأقداس، ولا منعه أن يمارس الفجور في هذا المكان المقدس، ولا الإله آتون رع منع قتل إخناتون، ولا منع تدمير مدينة أخيتاتون منذ قرون، إنما إرادة سوتاوي، ويد الحب والغضب والانتقام هي التي ذبحت الحقير آمون حتب، ذلك الخبيث.

هذه بعض الأفكار التي كانت تدور بعقل سوتاوي وهو يتجه هاربًا متخفيًا إلى أطلال أخيتاتون، التي تعيش حياة قرية كبيرة، محاطة بالمعابد المهدمة، والجماعات السرية، والعبادات المتنوعة، وبيوت الحب، والسحر الغامض الآسر لخروجها عن المألوف، واحتمائها بالغرابة والتفرد.

* * *

لم يكن يدرك أن أحدًا لا يبحث عنه، وأن الكهنة تكتموا الأمر، ولم يعد يعنيهم من قتل الكاهن الأكبر، وأنه انكسر بداخل كل واحد منهم شيء ما في عمق قلبه، وانطمس كثير من النور بين ظلام الشك والغضب من ذلك المفترس الذي شوه أقدس ما يملكون، وجعل بعض الكهنة – ربما ثلاثة منهم – يشكون في المنظومة كلها.

في هروبه أخذ يراقب الحياة: الناس، والطيور، والحيوانات، والحشرات، وتفتحت روحه على جمال الطبيعة، وعندما دقق في الآلهة التي يعبدها الناس، وجد أنها تستحق التعظيم لا العبادة، فتكوينها بديع وجميل ومناسب لحياتها، ويوحي بالسحر.. إنها طرق للإله الواحد.. لقد ضل الناس..

وعندما يجلس بجوار البحيرات والترع، ويرى الطائر إيبيس الأبيض الرشيق، أو يستمع إلى صوت الضفادع، أو زقزقة العصافير، يشعر بموجات من النور تملأ روحه، وهو يرى أشعة آتون رع تغمر الحياة.. وأخذ يجلس ساعات طويلة يراقب النمل في سعيه الدءوب.

ذهب إلى أتريب يتسمع الأخبار، فلم يجد شيئا مريبًا إلا أخبار موت الكاهن المفاجئ، ووجد أمام المعبد بردية تنعي ابن أتريب البار، الذي خدم الإله آمون كما لم يفعل أحد قبله.. وعرف أن وفدًا من أهل أتريب ذهب ليحضر طقوس تحنيطه ودفنه في شاطئ طيبة الغربي.

* * *

لم يخش سوتاوي على أخته تاتا كثيرًا، فهو يعرف أن القانون سيعطيها حقها في أملاك زوجها الواسعة، وحتى لو طمع البعض في الكثير، فسوف يتوفر الكثير لها ولولديها في طيبة وفي أتريب، كما أن سوبك معها، وأسعده أن سوبك سيربي آمون

الصغير، ومايا على دين آتون رع، وهذا هو الانتقام الأكبر من القتيل القذر.. ولم يعرف أن تاتا الجميلة أظهرت حكمة، ولم تكن جميلة ساذجة فقط، وأن قاربها يسير في الحياة تدفعه ريح مواتية.

* * *

استراح الهارب إلى حياته الجديدة، وعمل في كل الأعمال والحرف التي قابلته في الطريق، فعمل في مصانع البردي، وفي مصانع النسيج، وفي الحقول، وعمل كاتبًا ورسامًا في مقابر الأمراء السرية، واكتشف أن جوهر الشعب لم يتلوث كثيرًا، وإن كان سطحه ممزقًا، ولا يوحي بالخير، وخالط الجريك والآشوريين، والجنود الليبيين، والرحالة الذين يدققون مبهورين في الحياة المصرية، ويشترون العقود والأساور، والتحف، والبردي، وترك نفسه عامين لهذه الحياة، حتى شك أنه قتل آمون حتب، وأنه هارب.. وبعد أن ركب في النيل حتى إلفنتين، عاد واستقر في مدينته المحبوبة أخيتاتون.

التف حوله الفقهاء، والدراويش، والمتعصبون لآتون رع الذين يستيقظون كل صباح ليستقبلوه وهو يضيء العالم، ويقدمون قرابينهم، وهم يبتهلون إليه بالأناشيد المقدسة، وهم الذين يزرعون زهرة عباد الشمس بشكل سري.

* * *

لمدة عامين وهو يبذل جهدا كبيرًا في إقناع نفسه بأن قتل المرأة في قدس الأقداس كان ضروريًا.. لماذا لم يدعها تذهب؟ فهي مغلوبة على أمرها.. تعذب سوتاوي أكثر من أي إنسان في العالم.. ومزقه الندم.. وكان يصحو من النوم وهو يقاوم الغرق في بحيرة من الدماء.. هل هو الذي فعل ذلك، أم يد القدر القوية؟

* * *

هذه هي أخيتاتون بأطلال معابدها، والتي منع كهنة آمون نقل حجر منها من مكانه.. إنها مدينته.. رآها في أحلامه وهو طفل.

إنها مرعى روحه، وهي قلب العالم الروحي.. مدينة من صنع الخيال؛ فالمتصوفون، والدراويش، والشعراء الشعبيون، والعلماء، والفنانون، والرجال الغامضون يتجاورون في هذا المكان، والناس العاديون مشغولون في حياتهم اليومية، وعباداتهم المتعددة، ولكنه وجد في معظم البيوت قطعة حجرية لقرص الشمس بأشعته الممتدة بالحياة، ووجد أن التسامح عميق بين الناس إلا الكهنة، وكأن قلوبهم صنعت من الحقد والغباء.

* * *

نفذت روح المدينة إلى قلب سوتاوي، وكأنها كانت تنتظره بجسده متوسط الطول، القوي الرشيق، ونظراته العميقة، وتجاربه التي جعلته من أصحاب المآسي، ولا يهاب التجارب الجديدة، فهو المتطلع الشغوف دائمًا.. وعندما وجد أنه لا يستطيع الامتناع عن التفكير في معاشرة الخادمة الناعمة المثيرة التي فرضت نفسها على صلواته، زار بيت الحب مرتين في أسبوع واحد، ومارس الجنس في هوس بالنقود، ثم عاقب نفسه عقابًا شديدا، وجوّع نفسه يومين عن كل مرة، وعندما شق عليه الأمر، ولم يعد يفكر إلا في اللذة الجسدية، وفي العقاب الذي سيفرضه على نفسه؛ لأنه فقيه، وقاتل من أجل المبادئ.. اتصل بسوبك، وطلب منه أن يبيع بيته وأرضه في أتريب، ثم تزوج باستت ذات الحسن والنقاء ابنة صاحب مصنع البردي وورشة النحت، والذي يزود المدينة والقرى المجاورة بكل ما تحتاجه من نقوش آتون المقدسة، وبرديات الأناشيد، كما يزود بيوت الحياة بكل ما تحتاجه، ولا يخلو بيت من بيوت الأثرياء من تماثيل ورشته.

* * *

كل خيوط المدينة وأسرارها كانت تصل إلى سوتاوي، حتى أن الكثيرين أخذوا ينظرون إليه على أنه التجلي لإخناتون، وأصبح ابن العشرين ونيف هو السيد الروحي للمدينة.. ولكنه

انكمش خائفًا في صباح أحد الأيام عندما رأى فرقة من الجنود على خيولهم بسيوفهم المدلاة، يتقدمهم كاهن يرتدي زي كهنة آمون، وتلمع رأسه تحت الشمس.. فتتبعهم من بعيد، فوجدهم يتفقدون أطلال المعابد ليطمئنوا أنها في حالة جيدة من الخراب، كما كانت، ولم يقم أحد بإصلاح أي معبد، هذا ما عرفه، وعرف أنهم يأتون كل عام، ويقومون بإصلاح معبد الإله آمون الذي كلما بنوه يتم تخريبه بشكل سري، والجميع يعرفون كل شيء، ولكن الأمر توقف منذ سنوات عند هذا الحد.

* * *

لم يكف سوتاوي عن التفكير والتأمل في التجارب المشهورة التي كان كهنة آتون رع يثبتون بها أن الشمس هي واهبة الحياة، فكانوا يزرعون بعض حبوب القمح في الظلام، فتنبت الحبوب ثم تموت لعدم وجود الضوء، وكانت هذه التجربة تدفعهم للنشوة والسخرية من عبدة آمون؛ لأن تمثاله لا يصنع شيئا، أما إلههم فهو خالق وحي، وبدون الزرع تموت الحياة.

ومقابل ذلك كان عبدة آمون يملأون بيوتهم، ومداخل بيوتهم ومعابدهم بنباتات الظل، ويضحكون في وجه خصومهم قائلين: إنها لا تحتاج إلى الشمس، وعندما حدث خسوف شبه كامل للشمس، فقد مئات من الناس عقولهم لمرض إلههم، وأوّل

الكهنة هذا الأمر تأويلات خرافية، ولكن العلماء في مدينة الأهرام كانوا يعرفون الحقيقة، ولم يصدقهم أحد.

كان سوتاوي يعرف أيضًا أن القمح لا ينبت بدون المياه، ولا بدون الأرض الصالحة، ولا بدون الهواء، وأن الإله رع يحكم نصف العالم، وأن الظلام يحكم النصف الآخر، ولكن سطوة الشمس وقوتها ونورها المتلألئ كانت كثيرًا ما تبدد شكوكه.

وكلما مرت الأيام كانت أفكاره تميل إلى التسامح مع العقائد المختلفة، واكتشف في تأملاته أن الإنسان ضعيف جدًا، ومسجون في معتقدات مجتمعه، وأن الآلهة لا تقف مع البشر في غالب الأوقات، ولا تساند الخير دائمًا، وأن مصر أغنى بلد في العالم يموت فيها الفقراء من الجوع والظلم، وأن معاناة الإنسان أكبر من قدرة الآلهة على معرفتها، وظن أحيانا في لحظات تطرفه، أنه لا يوجد أجهل من الآلهة.

* * *

في الاجتماع الأسبوعي للكهنة عرض سوتاوي خطته، وبدأ بعرض فضيلة التسامح التي عاش بها المصريون ألوف السنين وقال: إن أردنا أن يعرف العالم أناشيد إخناتون ابن الإله رع، وأن نمارس عبادتنا في أمان، وأن نعيد بناء معابدنا، وأن نزرع زهرة عباد الشمس بلا خوف، فعلينا أن نوحد بين عبادة آمون رع، وآتون رع، وليعبد كل منكم في قلبه ما يشاء، فلن يدخل أحد

قلوبكم، وسوف نعيد بناء المدينة أجمل مما كانت، ونعبد إلهنا كل صباح، ونبتهل إليه كل مساء، ونملأ حدائقنا بزهرة عباد الشمس المقدسة أجمل أزهار العالم.

وها هي الخطة: سنبدأ بإعادة بناء معبد الإله آمون، وسنقوم بتوسيعه وتجميله، وسندعو كهنة آمون في احتفال كبير لافتتاح معبده، وسيكون بجواره المعبد العظيم للإله آتون رع، وسنقيم عيدًا يطوف فيه آمون المتجسد في تمثاله، وقرص الشمس حول المعبدين، وسأقوم بتأليف الأناشيد الخاصة بذلك، ولا بد من إرسال وفد إلى الكاهن الأكبر بي عنخ في طيبة، وهو رجل هادئ وعاقل.

* * *

بعد أن انتهى سوتاوي صمت الجميع قليلا متحيرين قلقين، ثم رفعوا أياديهم بالموافقة.. وبعد أسبوع عندما بدأت إعادة بناء معبد آمون علم الكهنة في طيبة بذلك، وتوقعوا الخطة المقبلة وناقشوها قبل أن تعرض عليهم، ولكنهم اشترطوا بناء معبد واحد فقط لآتون رع يكفي المدينة والقرى المجاورة، وقالوا تعبيرهم الجديد: إنها نسبة وتناسب، يقصدون أن عدد المؤمنين بآتون رع قليلون، واعتبروا أن اعتراف كهنة آتون بالألهة القديمة انتصار يستحق المخاطرة، وهناك سابقة اتحاد الإله رع بالإله آمون، وبجميع الآلهة القديمة.. وعندما حضر وفد الكهنة

أملوا شروطهم ووافقوا على ترميم سور المدينة، وترميم الميناء القديم.

وهكذا نفخ سوتاوي روحه الحارة المشتعلة في أخيتاتون، وعلى بوابة المدينة كان الإله آمون منقوشًا في مواجهة قرص الشمس، وتم تنصيب سوتاوي كاهنا أكبر لمعبد آتون رع، ونائب الكاهن لمعبد آمون رع.

* * *

عندما بارك كهنة آمون قمبيز، وأطلقوا عليه ابن الإله آمون، وتزلفوا إليه ليترك لهم أملاكهم، ولا يستولي على أوقاف معابدهم مقابل ضريبة يقدرون على دفعها، كانت أخيتاتون تقود المقاومة ومعها أتريب، ومنف، وسايس، وأون.. كان المقاومون يعملون في تنظيمات صغيرة تهجم على جنود الفرس، وتقتلهم وتستولي على سلاحهم، ولكن معظم المصريين عاشوا حياتهم، وكأنه لا يوجد احتلال، وكأن قمبيز هو الفرعون الحقيقي، وكأن الأمر لا يعنيهم، وعندما انتحر قمبيز كما يشاع، ظل الأمر كما هو، مناوشات قاتلة بين المقاومين وجنود الاحتلال.. ربما ظن الناس أن الاحتلال مرض طارئ سيزول من تلقاء نفسه، كما حدث سابقا، أو ربما لا يجدون فرقا بين الفرعون المصري، والمتفرعن الأجنبي.

* * *

وضع العجوز توت الذي شارف على السابعة والستين من عمره مفتاحًا على شكل عنخ مصنوع من الكهرمان الأحمر يشع بالغموض في كف سوتاوي، فنظر إليه مستفسرًا، فقال توت: توجد نسخة أخرى كانت مع الفقيه القتيل آخت رع بأتريب، فقال: نعم.. إنه معى، نسخة مثل هذه ورثتها عن أبي، ها هي حول رقبتي

- أنت ابن آخت رع إذن؟

- نعم.

- أنت من تخلصت من آمون حتب؟ نظر سوتاوي إليه ولم يرد، فقال: لا تخف نحن نتوارث هذين المفتاحين من أجيال، وحان أن يظل المفتاحان معك، فقد رأيت رؤيا بالأمس، وأرشدتني "الكا" الخاصة بالمقدس إخناتون. فقال سوتاوي: قل ما عندك أيها المبجل توت، فقد سمعت أبي يتحدث عنك مرات.

قال توت: أنا وأبوك من نسل حامل أسرار معبد آتون رع، وسأخبرك بأهمية المفتاحين، وعليك بالباقي، وستعرف ما تفعل:

تحت أطلال قصر إخناتون، وتحت حجرة نومه توجد حُجرة من الحَجَر، لها باب سري إذا أزلت التراب ستجد في الحجرة بابًا شرقيًا، وفيه مكانان غائران للمفتاحين، المفتاح الأصفر للأعلى،

والأحمر للأسفل، فإذا فتحت الباب ستجد كنوزا تكفي لإقامة دولة قوية، وتوجد أسرار كثيرة، وعليك أن تعيد بناء قصر إخناتون أولا، وتؤمن المكان عن طريق الكهنة، وسوف أكون معك لأشاهد ماذا يخبئ المفتاحان.. أتمنى أن أشاهد الحقيقة.

* * *

عندما ارتفع قصر إخناتون من الرماد، وقبل أن يتم تجميله وزخرفته، أحضر سوتاوي ثلاثة من الكهنة، والعجوز توت، وحفروا تحت حجرة النوم، وبعد ثلاثة أذرع فقط عثروا على الحجرة الصغيرة، وبعد كشف الباب وضع سوتاوى المفتاح الأول وأداره، ووضع توت المفتاح الثانى وأداره، فانفتح الباب بصوت حجري تحت نور المصابيح والعيون العشر، وحل هدوء تام، وانتشر في المكان ببطء نور أزرق فاتح سحر الجميع، فأطفأوا المصابيح..

في الأركان مشكاوات فيها مادة بيضاء عندما لامسها الهواء توهجت.. كان المكان قاعة سطحها تحت الأرض بعشرة أذرع، وارتفاعها عشرون ذراعًا، وطولها أربعون، وعرضها ثلاثون.. وقف الكهنة كما يقف عاشق في حضرة معشوقته، وانهالت دموع توت في صمت، وأخذوا يصلون ويقرءون نشيد الفرح والضياء، واكتشفوا أن ما بين أياديهم من أناشيد هي ربع

الأناشيد الأصلية، بعدما دمرها كهنة آمون، واكتشفوا مهورين باقي أسرار عبادتهم، وألوفا من المشغولات الذهبية والأساور، والأحجار الكريمة، والتحف المتنوعة التي أهداها الملوك لإخناتون، وبعض ملابسه وأدواته، وألوف البرديات للأناشيد والتفسيرات الفقهية لأدق أمور العقيدة، ومئات من أشكال عنخ الذهبية بطول شبرين في عرض شبر ونصف، وسبائك خام من الذهب والفضة والنحاس والبرونز، وتمثال لنفر نفرو نفرتيتي بالحجم الطبيعي.

توقف الجميع أمامه، وشهقوا من فتنته، فلم يشاهدوا شيئا بهذا الجمال من قبل، فللجمال الفني سطوة ساحرة غمرتهم، فلو كانت أمامهم، ما استطاعوا التأمل في جمالها كما يفعلون الآن.. مد توت يده وتحسس التمثال مرتعشًا من وضعيتها الرقيقة، ونظرتها البعيدة المدققة، ثم نقلوا عيونهم إلى تمثال إخناتون الملاصق لها، والذي يحيط خصرها الجميل بيده، إن دقة تعابير معبودهم لم تحول نظراتهم عن إشراق نفرتيتي الخالدة، ثم وقفوا أمام نشيد الشمس لإخناتون العائش على الصدق.. كان توت قد سمع عن هذا النشيد، وكان يحفظ مطلعه، فتدفقت دموعه وهو يقرأ النشيد كلمة كلمة، ويعاود القراءة وكان للنشيد مقدمة، قرأها سوتاوي:

كانت زهرة عباد الشمس هي الزهرة المفضلة عند ابن رع، يزرعها في حديقته، ويجلس ساعات طويلة يتأمل روعتها منتشيًا كل يوم، وكان يقول: إنها أجمل الزهور.

وتذكر توت أن كهنة آمون حرّموا زراعتها، وكل من يجدون في حديقته ولو زهرة واحدة يحاكمونه بلا شفقة، حتى انتهى عصر تلك الزهرة المشرقة التي كانت تزين شواطئ الترع، وحواف الحقول في مصر كلها، ولم يعد أحد يعرفها الآن إلا الجماعات السرية التي تحافظ عليها في حدائق مختفية بين الجبال.. وفي النشيد كان إخناتون يتخيل الشمس معبودة تناجيها الزهرة بصوت العشق، واعتبر توت أن هذا النشيد هو أثمن ما وجدوا، فقد أحدث هزة كبيرة في أرواح المؤمنين، وأصبح الدرس الرئيسي في بيوت الحياة، وأخذ توت يرتل النشيد في نشوة، وهم يرددون خلفه:

عبّادُ الشمس أنا عباد الشمسِ

تشرق في الصبح، فيضحكُ حسي

وتفيض على الأرض بدفق أشعتها

أرفع وجهي في شوقٍ،

أشرب من ذهب الضوء،

ويملأ نور المعبودةِ كأسي

أستقبل زخّات الضوءِ الشفافةِ..

تشرق روح الدنيا فيّ، وفي عينيّ، ومن حولي

أصنع ذاتي تحت عيون المحبوبة، تحت وصايتها

فأنا في قلب الكو ن.. أنا عباد الشمس العبّادُ

* * *

للشمس صلاتي ولها في الكون الأمجادُ

ولها صلى العشاق ورائي

فأنا الموصوف بوجدٍ وجنونٍ،

وأنا الدّوار مع المعبودة أسعى سعي المجذوب..

أنا مجنون الشمس أنا، والكل عيالٌ تحت لوائي

إن العشاق جموعٌ،

لكن ليس سواي العبّادُ

فأنا مشهورٌ بصلاة العشق،

ولي في كتب الحب تراتيلي لي أسمائي

وأنا الأولُ،

وجدي وجدٌ لشعاع الشمس النساج..

فقد ذبت جوى وغرامًا في فتنته،

تشرق في روحي كل صباحٍ تصنع عرسي

فأنا المبتهج الميّادُ

وإذا غابت غابت روحي، فالليل سهادُ

يعشقها حيٌّ وجمادُ

لكن ليس سواي يُجن بوجه المعبودة..

حين تطلُّ - بسحرٍ - سطوتُها

فأنا وحدي من يعبُدها

وحدي، حين تفك ضفائرها الذهبية..

فوق الأرض وتنثرها

حين تهل عليّ غزارتُها

أعرف أني محبوبٌ،

فأنا عبّاد الفيض العلويّ..

أدور مع المحبوبة منتشيًا،

أشرب من مطر الشمس،

وأرفع في فخر رأسي

* * *

حين تغيب المعبودة خلف الأفق..

تغادر في القلب لهيبًا

يكويني وجدٌ صوفيٌّ، عشقٌ جسديٌّ،

تتهدل أوراقي في شجن، تتهدل نفسي

أتلو صلواتي حين تغيب إلى أن تشرق..

أفرد أوراقي، أستقبل نور الدنيا،

أمتص أشعتها

يبدأ في الروض الإنشادُ

فأنا عباد الشمس العبّادُ

* * *

حين تهل إلهة كوني

في الفجر الروحي تهل بشارتها

فأكاد أجن، أحدق للمعبودة في فرح،

يصطبغ الأفق رويدًا، ويخف ضباب الفجر..

وتسطع في روحي بهجتُها

* * *

عباد الشمس أنا

وأنا السيد في الروض..

أنا تجسيد العشق الحراق..

أنا رمز، وأنا قطبٌ ووليٌّ،

وأنا في الروض نبيٌّ ورسولٌ أدعو للشمس..

أرفرف في خير الشمس ورحمتها،

فبكل صباح ميلادُ

❊ ❊ ❊

نحن تجلينا في مرآتينا،

فرأينا التقدير الذاتي لذاتينا

وعلى وعد في الصبح تلاقينا

ما أجمل تحت حضور المعبودة حقلي!!!

ما أجمل ظلي!!!

لو صليت قرونا كيف أوفّي المحبوبة حقا؟

فالعمر قصيرٌ

وأنا لا أملك إلا الإحساس ببهجتها وصلاتي

شكرًا لفيوض الربة، شكرا لحياتي تحت أشعتها

فشعاع الربة أعيـادُ

نقل الكهنة ما ينقصهم من الأناشيد، والأبحاث الفقهية وأخذوا ما يحتاجونه من ذهب، وأغلقوا الباب وختموه، وعلق سوتاوي مفتاحه في رقبته، وأعطى الآخر لتوت، فرفض قائلا: انتهى دوري، ويمكن أن أموت سعيدًا الآن، فأعطى المفتاح لنائبه وحافظ الأسرار باواح، فرفض أيضًا وقال: لا يثق أحد إلا بك، فأنت سيدنا، ومن بعث عقيدتنا إلى الحياة من جديد.

بدأت المدينة تتشكل تحت عيني وروح سوتاوي، وبعد ثلاثة أشهر أصبح القصر تحفة، وتم تزيينه برسوم نقلوها من قاعة الكنز، فولد القصر كما كان وكأن إخناتون غادره بالأمس. نهضت من تحت الرماد مدينة، وجددت نفسها وشبابها.

جنون الآلهة

سأل سوتاوى توت العجوز: أيها المحترم.. لماذا يتسم كهنة آمون بذلك الحقد غير المفهوم، والغباء الروحي، مما يجعلنا نحتار في التعامل معهم؟ وها هم ينظرون إلى ما نفعل بكراهية رغم التصالح معهم.. فقال توت: سأحكي لك حكاية عن جنون الآلهة القديمة التي يؤمن بها هؤلاء وغيرهم، سمعتها منذ ثلاثين عامًا من شاعر متجول، ولن تخفى دلالتها عليك:

يُحكى أنه في نظام الآلهة القديم اجتمع كبير الآلهة مع الآلهة في الفضاء المنير بين الحدائق والأزهار، وبعد مناقشات قرروا قتل إله الحب والخير، ذلك المتوحد الذي لا يكف عن بذر بذوره السامة بين مجتمع الآلهة الأقوياء المهيبين، وكلفوا إله الحرب بأن يضرب الضربة الأولى، وفاجأوا الإله الجميل وهو مقبل عليهم، وسدد إليه الإله ست ضربة عشوائية قاتلة، فشق صدره ورأسه، ففزع إله الحب والخير والجمال، وانتبه صارخًا مجنونًا من الألم، ولكن لأنه إله فلم تقتله الضربة فورًا، وأخذ هيئة الدفاع عن نفسه، وأمطرهم بألوف الألوف من الأزهار الإلهية الرائعة التي تفوح بالحب والعطر الفاغم، وألوف الألوف من القبل الدافئة، والقصائد التي تشع حبًا، ولكن كل ذلك لم

ينجح، وواصلوا طعنه بلا رحمة، ولا حب، ولا جمال، فعرف أن الأمر جاد، وكانت هذه التجربة الأولى..

استعد إله الحب، وأخذ يمطرهم بألوف السهام والحراب، ولكن الكثرة غلبت شجاعته.. أفقدته الضربات توازنه، وسالت دماؤه، وتدفقت في الفضاء مثل بحر عظيم، تلك الدماء الزرقاء هي التي صبغت السماء بلونها المعروف اليوم، وكان لونها قبل ذلك أبيض وأسود فقط.

أخذ إله الحب يترنح في الفضاء الهائل، وصوب تجاه كبير الآلهة سهمين، فأصاب إحدى عينيه، ولكن كبير الآلهة أعادها سليمة، وكانت عيناه سوداوين فجعلهما خضراوين، وأجمل مما سبق لأنه كبير الآلهة.

بعد أن نزفت دماء إله الحب الزرقاء، سالت قطرات حمراء، وهي التي تلون الشروق والغروب وكانا قبل ذلك بلا ألوان.

أخذ الإله الجميل الوحيد يتهاوى، ويصرخ من الغضب والخيانة، وما الصواعق والبراكين إلا صدى ألمه وحسرته يتردد ليل نهار، وجأر قائلا: لماذا أيها الإخوان؟ قالوا: هكذا. ألا تعرف أن الكون قائم على القسوة؟ وأنت كنت غلطة شنيعة من كبير الآلهة الذي خلقك سهوًا، فكنت نقطة الضعف الوحيدة في النظام.. كما أنك تهتم بتلك الكائنات الدقيقة الحشرية الدودية

التي تعيش في تلك الأرض المتعفنة، وإنك عار على الآلهة، فقال - ودماؤه تسيل بحارًا - : ولكني إله والإله لا يموت، فضحك الإله ست قائلا: أنت لا تعرف شيئا.. إن الآلهة تموت كل يوم في قلوب تلك الكائنات التي تهتم بها، كما أن الإله الأعظم قرر ذلك، أيها الإله الشفاف المضيء.

سقطت القطرة الحمراء الأخيرة في سماء الأرض، فضحك الإله ست ضحكة مدوية، وقال: أيتها الآلهة هل تتركون ذلك الجسد الرائع الجميل الألذ من فاكهة السماء يضيع هكذا سدى؟ فهجم الآلهة عليه ومزقوه بسيوفهم، وأخذوا يأكلون لحمه الشفاف المضيء، وهو ينطفئ رويدًا رويدًا، ووجوههم تنطق بلذة متوحشة، ومد كبير الآلهة يده إلى قلب ابنه الجميل القتيل وانتزعه من صدره، ووضعه في فمه وأكله مستمتعًا، وهو يقول: لقد كان ذلك الفتى الرقيق غلطة وقد أصلحناها الآن.

* * *

حدث ذلك في بدايات الحياة، ولكن صرخة إله الحب ما زالت تتردد في أنحاء الفضاء وتضايق الآلهة، وبدون إله الحب أصاب الآلهة الجنون وأصابتهم العشوائية، فأعملوا في الحياة قتلا وتنكيلا، وبدأت الحروب والدسائس بينهم، ولم تستفد سلوكًا رقيقًا من الجسد الذي التهمته.

وإذا كان هناك بعض الحب في الحياة، فهو راجع إلى جهاد الإنسان الشخصي، وإلى الإحساس القاتل بالغربة التي تحيط به، فتجعله يسعى إلى نصف آخر يأتنس به في مواجهة الموت والشر، وجنون الآلهة القديمة.

الهرم الروحي

رأى توت رؤيا هالته وأفزعته، فصحا من نومه مشوشًا والعرق يغمره، ولم يتذكر غير الوحوش، والنيران، والأرواح تقفز منها كالحمام المشتعل، فذهب إلى المعبد مهمومًا ليتخفف بالصلاة إلى الإله آتون رع، وعقد العزم على زيارة الهرم الروحي، والذي يقع حسب أقوى الإشاعات جنوب غرب هرم جسر المدرج بمسيرة ساعات.. إنها رحلة طويلة وشاقة عليه، فقد ولى عهد الشباب، ولكن لا بد من ذلك، إنه مدفوع دفعًا، تملكه انجذاب داخلي لا راد له.

الهرم العجيب محصن ومحمي بغرابته، وبالأرواح تحرسه دائمًا، وألوف الأسود، والذئاب، والكلاب، والثعالب، والضباع، والنسور تحيط به من كل جانب، وهي مستعدة لنهش كل من يقترب بدون وجه حق، وهو محاط بجدار من الريح، ولا يرى كل من هو خارج الجدار شيئا.

الهرم الأسطوري موجود وغير موجود، والشائعات حوله خرافية وساحرة، وهو مكسو بالأحجار الكريمة ويطاول السحاب.. إنه هرم المعرفة وهرم الخلود، وتاريخه من تاريخ كيميت، وربما أقدم، وقد بناه الإله الأكبر ليكون مكان راحته

على وجه الأرض، وهو يعطي زائره قوة هائلة، أو يقضي عليه دهشة، ولا يمر أحد من جدار الريح إلا بتعويذة، وإذا نسي التعويذة يلتهمه أقرب وحش إليه.. هذه بعض الحكايات عن الهرم الروحي، حلم ملايين الكهنة، والفقراء والشعراء واللصوص أيضًا.. إنه حلم الجميع.

أخذ توت معه الكاهن الشاب نيكاو، ليكون عونًا له في الطريق المبهم إلى الهرم الروحي، وركبا قاربًا لنقل الأفراد والبضائع من ميناء أخيتاتون متجهين مع التيار القوي إلى الشمال، إلى منف، ومنها إلى الشاطئ الغربي إلى الطريق المتوقع للهرم الروحي، وكان في الطريق عشرات الكهنة يتجهون إلى هذا المكان المقدس على أمل أن يتجلى لهم الهرم الروحي.

دارت في رأس نيكاو فكرة غامضة عن هذه الرحلة المثيرة، وكتم ألوف الأسئلة احترامًا لصمت المبجل توت الذي كان غارقا في تأملاته، يردد تعويذة جدار الريح التي نقل نصها الأصلي من قاعة الكنز، والتعويذة التي سيعبر بها دائرة الوحوش في طريقه إلى بوابة الهرم المشعة بالسحر.. كما فكر توت أنه أحمق لأنه صدق تلك الخرافة، فلم يقابل أحدًا دخل الهرم الأسطوري رغم عمره المديد، ولكنه يتبع حدسًا باطنيًا غامرًا، إنه في الحقيقة بلا إرادة في هذا الأمر.

وصلا في الميعاد المحدد في ليلة السابع والعشرين من الشهر القمري، حيث يختفي الإله خنسو، ويترك الليل أسود صافيًا لنجوم بلا حصر، وهذا هو الميعاد المتوقع لتجلي الهرم.

اشتريا بعض الطعام والفاكهة، وأجّرا حمارة ليركبها توت، واتجها جنوب غرب هرم زوسر، ومرا بجوار معبد حور محب، ووصلا إلى المكان المنتظر قبل الغروب بقليل، فربط نيكاو الحمارة في شجيرة صغيرة، وجمع لها بعض الأغصان، وجلس مع توت فوق أرض الصحراء في منطقة تتكون من الزلط الصغير، يراقبان غروب الإله آتون رع، ويصليان صلاة الغروب، وقد نفذت إلى قلبيها روعة الصحراء، وهما يشاهدان إلى الشمال أهرام المدينة المقدسة، وقريبًا أهرام ومعابد منطقة زوسر، وإلى الجنوب منطقة هرم سنفرو.. إن الأرواح تحيطهم على امتداد الشاطئ الغربي في سكون يمكن لمسه باليد.

بعد ساعة بدأت تظهر النجوم، وتلمع رويدًا رويدًا، حتى غمرت سماء الليل.. إنها أجمل من عرائس الخيال.. رقد توت ونيكاو على ظهريهما يشربان نور النجوم.. قال نيكاو: هل الأرواح تعيش بين النجوم؟ قال توت: الأرواح الخيرة فقط.

في منتصف الليل قال توت: هل تسمع شيئا يا نيكاو؟ قال: لا.. وكان جدار الريح المتدفق قد انتصب، ولم يره توت، ولكن سمعه، فعرف أن الأوان قد آن، فطلب من رفيقه ألا يترك

مكانه، وسار ساعة حتى وصل إلى جدار الريح وسمع تدفق الريح الهادر، فوضع عصاه في الريح ليتأكد، فخطفتها الريح.. وقف مرتعشًا عندما تأكد أن الأمر حقيقي، فأخذ يقرأ تعويذة جدار الريح:

أيتها الريح

لقد جئت مسالمًا أطلب المعرفة

إن الشغف يتدفق في قلبي مثلك،

وها أنا يضطرب قلبي شوقًا

أنا الذي أقدس كل ما يستحق التقديس،

فاسمحي لي بالدخول إلى الهرم الروحي

فأنا الذي لم أرتكب شيئًا سيئا عن قصد،

وأنا الذي تعذبت كما لم يتعذب أحد،

واحتملت ذلك صابرًا

اسمحي لي أيتها الريح المتدفقة،

فقد طلبني الهرم المقدس.

هدأت الريح أمامه، فمد يده فلم يشعر بأثر الريح، ورأى نورًا، فدخل ومشى مقدار عشرين ذراعًا، فالتمت الريح خلفه، وواصلت تدفقها.. وقف توت يرنو لمنظر لم يشاهده إلا سبعة أفراد على طول تاريخ مصر، وسيطر عليه صفاء روحي، وهو يشاهد الهرم الذي لا تُرى نهايته يضيء بلون أزرق فاتح، وحجارته شفافة، وتطير حوله ألوف الصقور الشفافة، ووجد ألوف الحيوانات المتوحشة المضيئة تقعى في دائرة هائلة حول الهرم وأمامها بحيرة مضيئة، ووجد طريقًا على جانبه سور من الذهب والفضة وأرضيته من الزبرجد، وعلى أول الطريق قرد شفاف يقف منتصبًا، ويشير لتوت بالوقوف قائلا:

إلى أين تذهب أيها الآدمي؟ فلم يأت أحد هنا منذ قرون.

قال توت:

المجد لسيد المكان

أنا توت العجوز جئت مسالمًا

أنا الذي طلبني الهرم المقدس

وناداني في نومي، فصحوت مجذوبًا

إلى الطريق الذي تقف على أوله

أيها القرد المقدس

يا من تضيء كل شعرة في جسمه

كان القلق يملأ روحي حتى عبرت جدار الريح،

فوجدت أرضًا غير الأرض، وهرمًا غير الأهرام،

إن قلبي جريح وأحتاج دواء،

فاسمح لي أيها المعظم.

* * *

قال القرد: اتبعني أيها الإنسي، فأنت في قلب الحظ الطيب..

خطا توت وراء القرد المضيء، وعندما وضع قدمه الأولى على زبرجد الطريق شعر بالخفة، وبالنور يتخلل جسمه عضوًا عضوًا، وسار يتلفت إلى البشر المضيئين الجالسين تحت الأشجار يأكلون فاكهة شفافة، ومنهم من يرفرف حول الهرم، وهناك جماعات تستحم في البحيرات، وسمع غناء، وترانيم غير أرضية.. هل هذا حلم؟ سار خلف القرد لمدة ساعة دون أن يشعر بتعب.. الحياة رائعة وتستحق أن يعيشها الإنسان طالما فيها كل هذا السحر والجمال، حتى لو كان ذلك حلمًا، الحياة هبة عظيمة من الخالق.. ها هو توت العجوز الذي تعذب كثيرًا يرى أثرًا رائعًا من آثار الخالق.

لم يلتفت القرد إلى الخلف، وعند مدخل الهرم، وقف حتى لحقه توت، وقال: اتبعني، فوجد قاعة بلا نهاية وسقفها مرتفع جدًا، يتدفق منها نور ملون، ورائحة مسكرة، ورأى صورة حية من نجوم السماء في السقف، ورفت حوله فراشات ضاحكة بعذوبة.

كلما التفت رأى ما يدهشه.. توقف القرد قرب المدخل، وأدخله حجرة فسيحة، وأغلق عليه بابًا شفافا، وطلب منه أن يجلس على مقعد ذهبي وخرج.. نظر توت إلى جدران الحجرة، فوجدها مبنية من الذهب، والفضة، واللازورد، والزبرجد، وعندما وضع يده يتحسس الحائط غاصت يده وعندما جذبها عاد الحائط كما كان.

بعد قليل عاد القرد بطبق عليه ثمرة جميز كبيرة، وشهية، قدمها لتوت قائلا: كلها فأنت جدير بها.

عندما أكل توت ثمرة الجميز شعر بلذة لم يعرفها لأي طعام من قبل، وشعر بخدر ونام بعد قليل.

* * *

رأى توت في نومه كل ما يقلقه واضحًا، ورأى مصير سوتاوي، ورأى أخيتاتون تحترق، والفرس يقتلون الناس بلا رحمة، ورأى الماضي والمستقبل.. رأى مسيرة الإنسانية

والصراعات التي لا تنتهي بين العقائد والأديان، ورأى الزمن يردم ألوف السنوات من تاريخ مصر، ورأى أديانا جديدة، وعقائد جديدة، وحروبًا جديدة، وأنهارًا من الدماء، ومذابح لا رحمة فيها، ورأى البدو الهمج المتخلفين يهجمون كالجراد، ويغطون مصر بقذارتهم.. تغير قلب توت وهو نائم، وعندما أشرقت الشمس، ولسعت وجهه استيقظ متحيرًا، فلم يجد الهرم الخرافي، ولا القرد المضيء، ولا الجدار، وكان في فمه طعم ثمرة الجميز الخالد، وجد نيكاو نائمًا والحمارة في مكانها..

انتبه توت بعد قليل إلى أن في الأمر شيئا غريبًا، وشعر بقوة لم يشعر بها سابقا، وعندما نظر إلى جسده دهش تمامًا، فأيقظ نيكاو، وعندما استفاق نظر إلى توت قائلا: من أنت؟ ألم تر توت الكاهن العجوز؟ قال توت: ماذا حدث لك؟ أنا توت، هل تسخر مني؟ ما الذي جاء بك إلى هنا يا بتاح؟ وأين والدك؟

- هل حدث شيء غريب؟

- أنت تشبه ابنك بتاح.

- ولكن بتاح في العشرين.

- لقد عدت شابًا أيها الكاهن العجوز.

هذه معجزة الهرم الأسطوري.. أنا شاهد عليها، ولكن ماذا رأيت أيها الكاهن الشاب توت؟ وضحك، فضحك توت.. وقال:

رأيت الماضي والمستقبل. أخذ نيكاو يضحك قائلا: أيها الكاهن المبجل توت.. إن قلبي مترع بالدهشة لأنني شاهد على هذه المعجزة، ولكني لا أستطيع أن أحترمك كما كنت سابقا، فضحك توت: عاملني كصديق في سنك.

هيا بنا لنعود فأخيتاتون تحترق الآن، فكن قويًا، وعاد الشابان معًا، والمشاعر تتدفق في قلب نيكاو، ولكن توت كان ينتظره مستقبل مختلف، فلم يعد بشريًا خالصًا.

شمس على الأرض

اتجهت شرقا كما أخبرني الناسك، ولكن بلاد هندوس ليست صغيرة ولا يمكن البحث فيها بسهولة، فأخذت أتامل البلاد، والناس، والأرض التي يبذر فيها المستنير بذوره..

هذه بلاد الغرائب والعجائب، فالناس هنا منقسمون إلى طبقات واضحة المعالم، وأما أبشع الطبقات فهي طبقة المنبوذين، فهم يعيشون في الغابات والأحراش والمستنقعات، وإن الديدان تعيش أفضل منهم.. وحياتهم قائمة على الصيد والتسول، ولهم طرق خاصة يمشون فيها، ولا يمكن أن يقترب الفرد المنبوذ من أحد طبقة البراهمة أو المحاربين أقل من خمسين خطوة، حتى لا يلوث الهواء؛ لأنهم يعتبرونهم نجاسة، وإذا قابله المحارب مصادفة، فإنه يقتله فورًا، فهو بلا قيمة، ولا يحاسب القاتل أحد، لذلك كان المنبوذ يسير وهو يصيح بصوت مرتفع دائمًا، ويعوي، وينبح مثل الكلب لتنبيه السادة، حتى لا يصيبهم الأذى من أنفاسه.. كان منظرهم بائسًا، بشعًا جدًا، وهذا لا يمكن فهمه في مصر.

وتختلف العادات اختلافا كبيرًا، فتوجد بلاد يقدم الناس فيها نساءهم للضيوف ليمارسوا الجنس معهن، بل إنهم يقدمون

زوجاتهم في ليلة العرس إلى البراهمة أو الغرباء، كما أنهم يتبادلون الزوجات كثيرًا، وفيهم من يعبدون فرج المرأة، أو العضو الذكري، وينام الفلاحون من هؤلاء مع زوجاتهم في الحقل قبل الزراعة بهدف تخصيب الأرض.

وكثير من النساك يفعلون أعاجيب محيرة عن طريق التدريب الطويل، وهم أساتذة في الصبر والصوم، والقدرة على التحمل، ومنهم من يدفن نفسه في صندوق محكم في الأرض أيامًا، ومنهم من يتخصص في تعذيب جسمه لتصفو روحه، فيحجون إلى معابدهم الفخمة من مسافة بعيدة سيرًا، أو وهم يتقلبون على جنوبهم، وسمعت أن بعضهم يحدق في الشمس حتى يذهب بصره، ورأيت ناسكًا عجوزًا له شعر طويل يلفه على رأسه، وعندما فرده كان طوله خمسة أذرع.

وتوجد تشابهات كثيرة بين مصر وهندوس، أولها هو التشابه في الشكل واللون، وثانيها تقديس الحيوانات ومظاهر الطبيعة، فمن يقتل حيوانًا مقدسًا يُقتل، وفي مصر من يقتل حيوانا مقدسًا وخصوصًا العجل أبيس، أو البقرة حتحور، والقطة باست، يتجمع الناس ويقتلونه بلا محاكمة، بل إن المصريين بلغوا حدًا من المبالغة في عبادة الحيوانات لم يصله أحد، وذلك تحت تأثير الكهنة، فهم يقدمون لتلك الحيوانات أفضل الأطعمة وأغلاها من دقيق القمح مذابًا في اللبن، وكل أنواع الحلوى المصنوعة من العسل، وإن كانت تعيش على اللحوم، يقدمون

لها الإوز المسلوق والمشوي، ويغسلونها بالماء الدافئ، ويدلكونها بأحسن العطور، ويحرقون أمامها كل أنواع البخور، ويضعون حول رقابها أفخر المجوهرات، ويأتون لها بأجمل الإناث من جنسها وتعامل مثل الحيوان المقدس.

وعندما يموت أحد هذه الحيوانات – المؤلهة – فإنهم يلفونه في أجمل الكتان، وينوحون عليه، ويضربون صدورهم من أجله، ويحنطونه أفضل تحنيط بالزيوت والعطور، ويضعونه في قبر مقدس، ويستدين المصري من أجل ذلك، هذا ما فعله الكهنة عندما جعلوا الآلهة تعيش في أجساد الحيوانات.

وإذا ذهب الجيش المصري في حملة حربية في مملكة أخرى، فإنهم كانوا يدفعون دية القطط، والصقور، والحيوانات المأسورة، ويحملونها معهم إلى مصر مكرمة.

* * *

جلست في ظل شجرة أتأمل فيما شاهدته وما قرأته، وما سمعته، فوجدت أن العقائد تكون صافية، ونقية في بدايات عهدها، ثم يتم تلويثها ببطء، وعندما تمر القرون يصبح الجهل بالعقائد هو الأصل، ويتم تقديس الأشياء التافهة، وتأكل العقائد نفسها أكلا، وتأكل كل من يعتقدون بها، وتصبح قيدًا معيقا، ولا يمكن الفكاك منه بسهولة؛ لأن وحوش الظلام تتعبد بحراسة الظلام من الأشعة، لذلك يهبط النور من السماء إلى الأرض كل

فترة، ليجدد الحياة، وأظنني أعاصر الآن هبوط النور على الأرض، لينير القلوب، ويعطي الحياة قيمة وجمالا.

مضت شهور وأنا أبحث عن المستنير حتى أصابني اليأس من عدم رؤيته، وعندما قررت العودة إلى أصدقائي على شاطئ هندوس الشرقي، لنعود إلى مصر، ونركب بداية الرياح الشرقية في الشتاء لتحملنا إلى بلاد بونت، ومنها إلى مصر.. في ساعة سعد.. من تصاريف القدر رأيته، فعرفته توًّا، دون أن يدلني أحد، كان محاطًا بتلاميذه، وحوارييه، ومحبيه في ظل شجرة.. يجلس أصفى من قطرة ماء، وأرق من نسمة، وأقوى من البحر، وأهدأ من السكون.. يجلس جلسته المشهورة، شفافا يمكنك أن ترى من خلاله.. وبعد أن انتهى من موعظته قلت له:

المجد لك أيها المستنير، لي أعوام وأنا أسعى إليك.. فنظر لي بوجهه المشرق المطمئن، وتأملني لحظة، وقال: لك المجد والسعادة أيها الغريب.. ها قد وصلت أخيرًا، وكل ساع مُجِدٍّ سيحقق ما يريد، ويملأ النور قلبه، فالقلوب المتفتحة للنور لا تقل عن النور نفسه.

فقلت: أنا الظامئ الذي ارتوى من تعاليمك التي أحببتها كما أحببتك، وأنا مشوق للمزيد من النور والسماحة دائمًا.

قال: عرفني بنفسك.

قلت: أنا حور أوناس، شاعر وتاجر مصري، وباحث عن الحقيقة والجمال.

قال: بوركت مصر ذات الحكمة والحضارة.

قلت: أيها المستنير.. إن الطريق الأوسط مثل وصايا الحكماء المصريين.

فابتسم وقال: عرفتم الطريق إذن..

فالنور واحد، وطرق الوصول إليه متنوعة.

قلت: نعم.. "وأنا أخفي خجلي، فالمستنير يتكلم عن مصر القديمة، وليست مصر المُهانة".

فقال: الحكمة مطلب العقلاء.

قلت: الطريق الأوسط يصل بالإنسان إلى الخير والرضى، فمن لا تعذبه شهوة التملك هو الغني.

قال: استوعبت الرسالة أيها المصري.. هلا ذكرت لي بعض حكمتكم.

ابتهج قلبي وقلت، والحواريون يستمعون بانتباه وتركيز:

أيها المستنير الذي ابتهج قلبي بمرآه..

في كل عصر من عصور مصر حكماء، وسوف ألخص بعض الحكم الأساسية، ولن أطيل.. يقول حكماؤنا:

لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرقِ

لا تؤذ الناس ولا الحيوانات

ولا تكثر من الكلام.

أومأ بوذا إيماءة سعادة،

فقلت: قال أمنموبي:

ضع طيبتك في قلب الناس حتى يحبك الجميع.

واحفظ لسانك من الألفاظ الشائنة،

فالإنسان يبني ويهدم بلسانه.

كن ثابتا أمام غيرك من الناس

لأن الإنسان في مأمن في يد الله.

لا تشاركن أحمق، ولا تخالطن خائنا.

وهتك ستر الرجل أمر حقير.

وتنازل عن ثلثي دين المعدم.

ولا تغمسن قلمك في المداد لتضر أحدًا.

ولا تقبل هدية رجل قوي،

ولا تظلمن الضعيف من أجله؛

لأن العدل هبة عظيمة من الله.

ومد يد المساعدة للرجل المسن

واحترمه كما يحترمه أولاده.

وصمتّ قليلا حتى أخذت نفَسي وتابعت:

البئر العذبة للظمآن في الصحراء

موصدة لا تفتح للثرثار،

ولكنها مفتوحة للصامت،

فإنه عندما يأتي الصامت

فإنه يجد البئر.

* * *

لشد ما لمعت عينا المستنير سعادة، وأنا أترجم الهيروغليفية إلى السنسكريتية، وقال:

- لمصر فضل على العالم.

إن ما قلته يا حور أوناس هو طريق الخير والسعادة لمن يتبعه، إنه الطريق الأوسط، ولكني أيها المصري يا ابن الحضارة العظيمة، لا أعرف شيئا عن أسرار الآلهة، ولكني أعرف الكثير عن معاناة الإنسان.

فقلت: أيها المستنير.. ماذا تقول عن الشعراء؟

فقال مقولته الخالدة:

الشعراء الشعراء يعرفون الطريق جيدًا؛ لأنهم هم النور في مقدمة الطريق.

فقلت قبل أن أفارقه مجبرًا:

لك المجد أيها المستنير.. أنت المعرفة الخالصة، والاطمئنان الغامر، والوداعة التي بلا حدود، وأنت الإنسان الكامل الذي لم يحارب أحدًا، ولم يقتل أحدًا، ولا حتى حشرة.

إنني أقدر المستنير الذي أشرقت ابتسامته وحكمته في قلبي إلى الأبد.

نجم في سماء الليل

شعر كهنة آمون بخديعة هائلة، وهم يشاهدون مدينة أخيتاتون تنمو كأن الربيع تدفق فيها فجأة، فإذا كانت طيبة امرأة جميلة وقور، فأخيتاتون فتاة ساحرة من جميع الوجوه، يلفها الشباب الجديد، وهذا الكاهن الشاب سوتاوي، في عام واحد بعث المدينة أجمل مما كانت أيام إخناتون، وأضحت مجادلات كهنة آتون رع قوية متماسكة، ووجدوا أن أناشيد جديدة مؤثرة تملأ الأفواه والبيوت.. إن إقليما كاملا يخرج من تحت سيطرتهم.

* * *

قال كاهن معبد آمون رع: لقد تصالحنا مع وحش.. وهو ينظر من بعيد إلى سوتاوي متحيرًا من شخصيته المشعة التي تتحرك في العمل بطاقة هائلة، كأنها طاقة إله.. إن في الأمر شيئا مريبًا، والمدينة تعامله كأنه ملك.

خيوط المقاومة ضد الاحتلال تجمعت في يده، ولكنه لم يجهز جيشًا منظمًا، بل جهز عشرات العصابات القوية الماكرة، من الشباب والشيوخ والنساء أيضًا، فاستخدم الراقصات

بقدراتهن القديمة قدم التاريخ على خداع الأعداء، حتى أنه أفنى كتيبة كاملة، بعد أن شغلتهم الراقصات.

جعل سوتاوي بقاء العدو في مصر جحيمًا، فرجاله ماهرون في التخفي، وعيونهم كالصقور، كما اتصل بجميع ثوار المدن المقاومة، وأرسل رجاله إلى كل مكان يتجمع فيه العدو خصوصًا في منف.

كل يوم يتوهج نجمه، وتحيطه هالة، ولكن كهنة آمون لم يعجبهم كل ذلك، فلا فرق عندهم بين قمبيز، أو دارا، أو أي فرعون طالما يستفيدون، فحبكوا خطتهم، وأرسلوا رسولا دخل من باب أخيتاتون صباحًا حليق الرأس، وحيا الإله آمون على واجهة بوابة المدينة، ثم اتجه إلى المعبد، وفي رأسه خطة لإنهاء هذا الأمر تمامًا.. هذا القلق الذي دمروه منذ سبعة قرون، فلا يجب تركه أكثر من ذلك، فالآلهة القديمة في خطر.

* * *

في مناسبة مصطنعة حمل عشرات من كهنة آمون تمثاله الخشبي على محفة، وأخذوا يطوفون حول المعبد في جمع كبير من الناس، وتحت رداء كل واحد من مئات المحتفلين سيف فارسي، فمعظم الكهنة والجمهور هم من جنود الفرس، وينتظرون إشارة الهجوم على معبد آتون رع الهادئ، فلا جنود تحرسه..

وفي لحظة هجموا بسيوفهم، وقبضوا على سوتاوي، وتسعة من الكهنة، وأتوا بهم مقيدين في الميدان الواسع بين المعبدين، وقرأ القائد الفارسي قرارًا بإعدامهم؛ لأنهم يقتلون الجنود الفرس.. ونفذوا الحكم سريعًا، فسقط سوتاوي مضرّجًا في دمائه، وفي رأسه ألوف الأفكار، ولكن لم يتسن له الوقت لفعل شيء.. إنه فخ محكم رسمه كهنة آمون.

في قلب الهرج امتدت يد الجريكي، ونزعت المفتاحين من رقبة سوتاوي المفصولة.

وعندما علم رجاله تجمعوا كالمجانين، وذبحوا جيش العدو الصغير، وذبحوا كهنة آمون، وأغرقت الدماء قلب أخيتاتون.

في اليوم التالي هجم جيش من خمسة آلاف من الأعداء وأحرقوا المدينة، وأعادوها حطامًا كما كانت بعد قتل إخناتون.

* * *

في رداء من الحزن والألم والدماء اضطربت أخيتاتون بعد هذا الانتقام المروع، ولم يجد أحد جثة سوتاوي، وفي الليلة الثالثة عندما حل الظلام ظهر في سماء المدينة شكل صقر مضيء، يتدفق بنور أزرق فاتح، يشع سحرًا خرافيًا مثل النور الموجود في قاعة الكنز.

كان رأس الصقر يتجه شرقا باتجاه الجبل، وجناحاه مفرودان على حجم المدينة، وذيله فوق النهر.

خرج الناس إلى الشوارع، ولم ينم أحد، كان الصقر يحدق فيهم فردًا فردًا.. ظل الناس يقرأون أناشيد إخناتون، وأناشيد سوتاوي، بينما فر جنود المحتل إلى خارج المدينة.

إنه سوتاوي.. هكذا قال الناس.. ظل الأمر سبع ليالي، وفي منتصف الليلة السابعة حلق الصقر الهائل بعيدًا في بطء، واختفى في السماء حتى أصبح نجمًا ساطعًا، بينما شهق الناس، وتساقطوا على الأرض باكين، وحلت على المدينة وحشة أبدية، وحزن بلا حل وحركت الرياح الدائبة وحوش الرمال الهادئة، فتوجهت إليها محتمية بالزمن

انتهت ..

حور بن أوناس سوكر

* * *

ترجمها عن الهيروغليفية: حسين أحمد إسماعيل

المراجع والمصادر

- مصر القديمة - سليم حسن.
- فجر الضمير - برستد.
- الفكر الشرقي القديم - جون كولر - عالم المعرفة.
- معجم الحضارة المصرية القديمة.
- أشعار الحب عند قدماء المصريين - إبراهيم شحاتة.
- رحلات فارتيما.
- الهند عقائدها وأساطيرها - سلسلة اقرأ.
- كانت ملكة على مصر، ونفرد هولمز - ت سعد أحمد حسين.
- نهاية مدينة فرعونية، د . الحسيني صالح.
- أبو الهول . سليم حسن.
- خرائب تل أتريب - جمال شاكر.
- رحلات ماركو بولو - ت عبد العزيز جاويد.
- آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية - محرم كمال.
- معجم آلهة مصر القديمة. ماريو توسي – كارلو ريوردا - ترجمة ابتسام محمد عبد المجيد.
- نصوص تاريخية - د. أحمد أمين سليم.

- نهب آثار وادى النيل – بريان م . فاجان؛ ترجمة د . أحمد زهير أمين.
- الشطح الروحى – ديوان . حسين أحمد إسماعيل.
- برامج تلفزيونية عديدة منها مثلا: البرنامج العجيب، عين حورس عشرة أجزاء. شركة ميديا لنك انترناشيونال – قناة صانعو القرار ٢٠٠٩.

حسين أحمد إسماعيل

كاتب، ومهتم بالفن التشكيلي والتصوير الفوتوغرافي..
للكاتب ستة نصوص مقررة في منهج الصف الثالث الابتدائي، بداية من العام الدراسي ٢٠٠٦ حتى ٢٠١٤
فاز بالمسابقة المركزية للهيئة العامة لقصور الثقافة - شعر الأطفال - عام ١٩٩٧م
مارس الفن التشكيلي، وأقام معارض خاصة، وشارك في معارض عامة.
تولى رئاسة نادي أدب بنها من ١٩٩٦ إلى ١٩٩٨،
وشارك في مؤتمر أدباء مصر في الأقاليم،
نشرت له الكثير من القصائد في المجلات والجرائد.

المواقع الإلكترونية:

منتدى أتريب
http://tata.forumegypt.net
فيس بوك: حسين إسماعيل
http://facebook.com/hussein51061
تويتر: حسين إسماعيل
https://twitter.com/husseinalsha3r

صدر له:

حديقة الذكريات: الهيئة العامة لقصور الثقافة	١٩٩٨
منـــــــــازل الـــــــــروح	١٩٩٩
مشـــــــــاعر خاصـــــــــة	١٩٩٩
المـــــلاك: مديريـــــة الثقافـــــة بالقليوبيـــــة	٢٠٠١
الشـــــــطح الروحـــــــي	٢٠٠٤
لـــيس علـــى المجنـــون حـــرج	٢٠٠٦
الأســـــــــــــــطورية	٢٠٠٧
تـــداعيات مجنـــون محتـــرف	٢٠٠٧
مرحبا بالحياة.. شعر للأطفال	٢٠٠٧
الزفـــــــرة الأخيـــــــرة	٢٠٠٨
حـــرب علـــى قلبـــي (عـــن مذبحـــة غـــزة)	٢٠٠٨
حيـاة الجيـران المثيـرة (قصـص للأطفـال)	٢٠٠٩
البســـتاني فـــي الأحـــراش (قصـــص)	٢٠٠٩
حي على النور ديوان شعر	٢٠٠٩
التعلـــــــيم الممتـــــــع	٢٠١٩

تحت الطبع:

- أحراش النهار والليل
- أهريق دمي (نصوص)
- يوميات الروح (نصوص)
- حافة الغابة (رواية)
- قمر أندلسي
- الوباء العربي
- بيان من أطفال العالم
- كعبة الأحرار

دار إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية
ج . م . ع

www.Idafabooks.com